عباس محمود العقاد

أبو نواس

الحسن بن هانئ

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

تقديم

من أبرز ما وضعه المرحوم عباس محمود العقاد من كتب السيرة كتاب : « أبو نواس ، الحسن بن هانيء » • وقد يظن من يهم بقراءة هذا الكتاب أن العقاد يرمي الى ترجمة أبي نواس ، ونقد أدبه وشعره • والواقع أن بحثه مقصور على دراسة نفسية أبي نواس ، ومزاجه الفطري ، وجلاء دخيلة وجدانه مهما اتسمت به من حسن أو سيء ، وخير أو شر • واذا لجأ أحيانا الى وقائع الترجمة وشواهد الشعر فما ذلك الا من أجل الابانة عن طبيعته ، والاستعانة على تفسير خصائصه ، والكشف عن مكنونها •

تحدث العقاد في هذا الكتاب أول ما تحدث عن شهرة أبي نواس ، ليس بين الأدباء الذين يقدرون الشاعر بما أتى به من وجوه الاجادة والابداع ، بل بين العامة من الناس وأشباه العامة • وشهرته عندهم قائمة أولا على أنه « أبو النواس » بتشديد الواو وزيادة الألف واللام للتعريف ، وعلى أنه ثانيا شخصية ذات نوادر وأخبار ، بغض النظر عن أنه ينظم أو لا ينظم الأشعار • ومن مزايا هذه الشخصية عندهم كما تبدو في النوادر والأخبار التي يروونها عنه ، وخاصة في بعض الكتب كألف ليلة وليلة ، سرعة الجواب والفهم بالاشارة ، وايراد الحوادث بشكل يجعل السامعين يميلون الى الظن بأنه مطلع على المغيبات التي يتحدث عنها وكأنه كان حاضرا لدى وقوعها ، الى غير ذلك من نوادر الظرف واللباقة ، والتلاعب بالكلام ، وحكايات اللهو واللغو التي كثيرا ما تجانب الحياء وتقرب من الفحش والبذاء • وقد طغى هذا الجانب من شهرته على الأدباء العارفين بأدب الفصحى فنسبوا اليه من النوادر والأخبار والحكايات كل مستغرب تحيط به الشبه والظنون •

وفي فصل « النرجسية » ، يبدو لك العقاد في صورة العالم النفسي المتبحر الذي يعلم من أسرار النفس الانسانية ، ومن أساليب التحليل النفسي ما يعلمه علماء النفس المتخصصون في عصرنا الحاضر · وكثيرا ما يعرض لهؤلاء العلماء المحدثين بنقد آرائهم ، وتصويب نظراتهم ، مما يجعلك تميل الى الاعتقاد بأن العقاد ليس كما عرف عنه بأنه عملاق في الأدب والنقد والفلسفة فحسب ، بل هو أيضا عملاق في العلم ، وفي معارف العصر ، على اختلافها ، الى المدى الذي لا يبلغه الا القليل القليل ·

وبعد بحث مستفيض في « النرجسية » وسبب تسميتها ولفظها ، وسماتها ومظاهرها ، وتحليل نفسية الواقع تحت أسرها ، والمريض بدائها ، يتناول « نرجسية » أبي نواس بالبحث ، وأثر نشأته وتربيته وطبيعته وبيئته وعشرائه في الصيغة التي استقر عليها ولازمته مدى حياته · وهذه النرجسية تتلخص في أن أبا نواس ككل مصاب بهذه الآفة كان هائما بحب نفسه ، مدلها بعشقها ، مفتونا بجمالها الذي يخيل اليه أنه لا نظير له في هذا الوجود · وهذا سر ما كان يتسم به من الشذوذ في تكوينه الجنسي ، ودوافعه النفسية التي جعلته يجاهر بالاباحية مؤثرا الظهور على التستر ، ومعاقرة الخمر والتفنن في وصفها ، والتغزل بالذكور والاناث على السواء ·

وتبدو براعة العقاد في التحليل النفسي عند دراسته لشخصية أبي نواس التي يعتبرها شخصية فريدة نموذجية · وهي في واقعها تختلف اختلافا كبيرا عن شخصية أبي النواس التي أسبغها عليه العامة وأشباه العامة · ويرد تكوين هذه الشخصية الى عدة عوامل منها « نرجسيته » التي فطر عليها ونمتها نشأته وبيئته التي عاش فيها · ومنها تكوينه الجسدي الذي يتألق فيه جمال جسده ووجهه ، وحسن بدنه ، مع لوازم أخرى مثل اللثغة وبحة الصوت ، والضفيرة أو الذؤابة المرسلة من رأسه فجعلته في صغره شبيها بالبنات · ومن عناصر هذه الشخصية تربيته البيتية ، فقد كان في كفالة أمه التي أحاطته بكل وسائل التدليل لأنه وحيدها · ولم ينج من مغامز أخصامه الذين كانوا يعيرونه بأنها كانت تجمع في بيتها بين الغواني وطلابهن · أما والده فكان مجهول النسب ، وكان هذا مغمزا آخر يضاف الى ما نسبوه

الى أمه مما ولد فيه عقدة نفسية انحدرت به الى أسفل دركات المهانة ، وقادته الى التورط في مستنقع الاباحية المطلقة •

ولبيئة المجتمع أثر لا ينكر في نسج خيوط الشخصية ، فقد فتح أبو نواس عينيه على الدنيا العريضة في مدينة البصرة ، وهي فرضة العالم كله في ذلك الزمان ، ومثابة الطلاب والقصاد من كل بلد ، وفيها محاسن الحضارة ومساوئها معروضة لمن يريد هذه أو تلك فيصيب فيها ما يبغيه من العلم والأدب ، أو من اللهو وأفانين الفساد • ومن البديهي بحكم النزعة الاباحية في أبي نواس أن يغترف من بؤرة المفاسد ما يربو كثيرا جدا على ما وعاه من الثقافة والخلق الحميد • وحالة ذلك العصر السياسية ، وحالته الثقافية لا جرم تركتا في نفس أبي نواس انطباعات لم يكن منها مهرب • فقد كانت الحالة السياسية مضطربة اذ سقطت فيه دولة بني أمية وقامت دولة بني العباس ، وفيه احتدم الصراع بين العلويين والعباسيين ، واشتد التنافس بين الأخ وأخيه في سبيل الخلافة ، وذر قرن الشعوبية التي فرقت بين الشعوب الاسلامية ، وزرعت بذور الثورة بين العناصر المختلفة مما ألقى في روع أبي نواس الذي بدأ يعقل ويفهم أن الدنيا كلها شقاق ونفاق ، سداها الاباحة ، ولحمتها الرياء • ولم تكن الحالة الثقافية أقل اضطرابا واختلاطا من الحالة السياسية • فقد كانت مدن العراق يومئذ تعج بأهل كل ملة ، وأتباع كل نحلة ، وكثر فيها أصحاب المذاهب المتناقضة في النحو والفقه والفلسفة وعلوم الكلام ، وانتقل الجدل في هذه الأمور من طائفة المتأدبين والمتحذلقين الى سواد الناس • وكان يغشى البصرة والكوفة كثير من المجوس والزنادقة كما يغشاها أهل الهند والصين حاملين معهم عاداتهم وشعائرهم ووسائل جدهم ولهوهم • ولا شك في أن أبا نواس قد تأثر بهذا كله فكان عنصرا من عناصر شخصيته المترجرجة غير المستقرة •

ومن الطريف أن العقاد عقد فصلا في كتابه هذا تحدث فيه عن الشيطان • وقد حداه الى ذلك أن أبا نواس كان كثير اللهج بذكر الشيطان ، كثير التعويل عليه في غواياته ومغامراته • بيد أنه كان للشيطان ذكر عند غير أبي نواس مما جعل منه نماذج مختلفة لكل نموذج منها غرض يسعى اليه ، ومجال يعمل فيه •

فهناك شيطان شاعر الجاهلية الذي يصحب الشاعر ويوسوس له بدقائق المعاني ، وخفايا الأفكار التي لا ينفذ اليها بغير معونة الجن • ولكن هذا الشيطان لا شأن له بوساوس الضمائر ووساوس الأخلاق ، فهو لا يعني أصحاب الدراسات النفسية ، ولا دخل له في الوساوس المرضية • وهناك الشيطان الذي يصفه الشاعر على الصورة التي يتخيلها ويجعله رمز الكبرياء والتمرد كما فعل الشاعر الانكليزي « ملتون » في فردوسه المفقود ، و «كردوتشي» الشاعر الايطالي في نشيده الى ابليس • وقد صور كل منهما شيطانه متكبرا ثائرا لأنهما عاشا في ابان ثورة عنيفة • و « جيتي » شاعر الألمان ، صاحب رواية « فوست » صور في روايته هذه شيطانا يصنع اكسير الحياة ليطيل به العمر ، ويرد به الشباب الى الشيوخ ، ويساوم به على الضمائر والأرواح ، فمن باعه الحياة الأبدية أخذ بديلا منها المتعة والقوة والسيطرة بالمعرفة في حياته الأرضية •

وتخيل الشاعر الشرقي « السعدي » في بعض أحلامه صورة أخرى للشيطان أظهره فيها فاتنا وسيما لا قبيحا دميما كما قال عنه أبناء آدم • ولا شك في أنه لم يصور الشيطان على تلك الصورة التي حلم بها الا بعد أن رأى الشياطين من الانس في أجمل صورة ، وقاس الأمر بعقله فخطر له أن الشيطان خادع محتال ، وأنه لن يخدع الناس ويستهويهم بوجه يقابلونه بالنفور والاعراض •

أما شيطان أبي نواس فيختلف كل الاختلاف عن الشيطان الذي يعرفه الناس ويجمعون على أن مهمته الوحيدة في هذه الدنيا هي الاغراء بالمعاصي والذنوب ، وتضليل كل مهتد وجره الى الانغماس في حمأة الذنوب • شيطان الناس آمر يوسوس في صدور الناس وينزغهم لينحدروا في مزالق الشرور • أما شيطان أبي نواس فهو شيطان خاص به ، ملازم له ، يأمره هو فيأتمر ، ويدله على الميدان الذي يجب أن يعمل فيه فيطيع صاغرا مختارا من غير تمنع ولا تردد ، فاذا أغرى الشيطان الناس بشرب الخمر ، فذلك شأنه ولا حق لأحد في أن يحول بينه وبين ذلك ، ولكنه مطالب عند أبي نواس بأن يكف عنها عذاله وأخصامه وأولئك

الذين يأنف ويتعالى عن مجاراتهم اياه في تعاطيها ومعاقرتها ٠ وكأنما خلق الشيطان لمراعاة المزاج النرجسي الذي يمتاز به أبو نواس ، هذا المزاج الذي من دأبه الدلال والتأبي وفرض الانقياد على كل من يتصدى له ٠

ولما كان للخمر مكان مرموق في حياة أبي نواس ، ودار عليها جل شعره ، فقد خصها العقاد بفصل ذكر فيه البواعث التي حملت أبا نواس على معاقرتها وادمانها وحصر هذه البواعث في ثلاثة : أولها العقدة النفسية التي تولدت لديه من جراء الغضاضة التي كان يشعر بها من ناحية الانتساب الى أم وأب بعيدين عن مجال الافتخار حين يتبارى الأنداد في التفاخر بشرف النسب وعنفوان الميلاد ٠ ويتضح سر هذا التفاخر اذا علمنا أن العصر الذي عاش فيه أبو نواس كانت كل فئة فيه تعتمد على الاشادة بنسبها من أجل أن تفوز بالغلبة على مناوئيها ٠ فعل ذلك العباسيون والعلويون والشعوبيون حتى أصبح التفاخر بالأنساب سمة ذلك العصر ، والوسيلة التي تثبت بها كل فئة جدارتها بموضع الصدارة ٠

وثاني هذه البواعث ما يعتري صاحب الطبيعة النرجسية من نوبات السأمة كلما خلا الى نفسه ، وفرغ من العمل ان كان له عمل يشغله ٠ والطبيعة النرجسية تستثقل الوقت ، وتضجر من طوله ، فتلجأ في دفع هذا الضجر الى كل ما يشغل ويلهي ، وينبه ويستثير ، وكل ذلك ماثل في الخمر وطول ادمانها ٠

وثالث هذه البواعث التي دفعت أبا نواس الى ادمان الشراب باعث مرجح الاحتمال ، وهو سوء العيش ، والفاقة التي تحول دون حصول الجسم على الغذاء الجيد الكافي ، وتوفير الحركة والنشاط لكل جارحة فيه ٠

ولا شك أن من متممات شخصية أبي نواس شاعريته ، ولئن اختلفت الآراء في بعض مزاياه فلا خلاف في أنه شاعر كبير لفت بشعره انتباه أنداده من الشعراء ، وحمل الأدباء والمتأدبين والنقاد ، في القديم والحديث ، على تذوق شعره ، وامعان النظر فيه ، للدلالة على ما يشتمل عليه من ميزات ومآخذ ٠ ولما كان الشعر فنا ، والشاعر فنانا ، كان لا بد أن يكون لكل شاعر

مذهب في الفن يتلاءم مع مزاجه ، وشمائله العقلية والنفسية .
أما طبيعة أبي نواس الفتية فانها ، في نظر العقاد ، تقوم على الولوع بالعرض والظهور ، وشغفه باغاظة الناس ، والاستخفاف برأيهم ، لأنهم أهون لديه من أن يمتنع عن لذة من اللذائذ مجلبة لمرضاتهم ، ولأنه يؤثر مذمتهم واستنكارهم على ثنائهم واطرائهم . وتبدو هذه الطبيعة واضحة جلية في قصائده الخمريات التي يؤثر فيها الجهر بشرب الخمر على الاسرار ، وفي غزله الاباحي المتهتك الذي يخدش أسماع ذوي الوقار قبل أسماع العذارى ، ويستوي فيه عنده التغزل بالغيد الحسان ، والذكور من الولدان ، كما تبدو في قصائد الزهد والنسك التي لا ينكر شعوره الصادق فيها ، الا أنها ، على كل حال ، تدهش عارفيه وتصدمهم بما لا يتوقعونه من أمثاله من الاباحيين المتهتكين .

وأخيرا يعرض العقاد لعقيدة أبي نواس فيقرر أنه ليس ، مع مجونه ، لا دينيا ولا جاحدا . ويقصد باللاديني ذلك الذي لا يحفل بالدين ، ولا يشغل عقله به ، ومكانه من باطنه خواء لا يتسع لايمان ولا انكار . أما الجاحد فهو الذي ينكر دينا بعينه لا تطمئن نفسه الى عقائده وشعائره ، ولا يرتضيها عقله ، ولكنه يتشوف دائما الى دين غير الأديان التي يعرفها جميعا ، يسمو عليها ، ويكون له المثل الأعلى الذي يحلم به ويتوق اليه . وأبو نواس لم يكن من اللادينيين بدليل ما يحفل به شعره من الاشارة الى الأديان واللهج بها . ولم يكن جاحدا لدينه لأنه ، كما يلاحظ من قراءة شعره ، لا يتوانى عن ذكر الدين والعبادة ، حتى في خمرياته وغزلياته . وهذا يشير الى أن الدين يشغل حيزا هاما من تفكيره ، ومن أكثر من ذكر شيء دل على اهتمامه به ، واتجاه وعيه اليه . أما التناقض الذي يبدو في سيرته متمثلا في شعوره الديني من جهة ، وتهتكه واباحيته من جهة أخرى ، فيمكن تعليله بأن أبا نواس كان يعتنق مذهب فرقة المرجئة التي ظهرت منذ أيام الخلفاء الراشدين ، وكرهت الخوض في الخلاف بين أجلاء الصحابة ، وتركت الأمر لله يحكم فيه يوم الدين ،

وذهب بعض كبارها الى أن الايمان لا تضر معــه سيئة ، وأن الشرك لا تنفع معه حسنة • وطبيعي أن تصادف هذه العقيدة هوى في نفس أبي نواس فراح يشيد بالقول والعمل أن الكبائر لا تسلك صاحبها مع الكفار ، ولا تحرمه الرجاء في عفو الله •

واننا لا نرى مندوحة عن التنويه بفضل السيــد شريف الأنصاري صاحب المكتبة العصرية في صيدا وبيروت الذي ألزم نفسه مهمة اعادة الطبع لمعظم آثار عملاق الأدب المرحوم عباس محمود العقاد ، فجزاه الله عن كل مثقف عربي أحسن الجزاء •

صيدا ــ منيف لطفي

أبو نواس عند العامة

شهرة أبى نواس

اشتهر فى الأدب العربى عشرات من الشعراء والأدباء ، يعرفهم قراء الأدب ورواته ، ولا تصل أسماؤهم — فضلا عن أخبارهم — الى الأميين وأشباه الأميين من جهلاء العامة ، ماعدا شاعرا واحدا اشـتهر من بين هؤلاء الشعراء والأدباء فى بابه فسمع به الأميون وأشـباه الأميين ، واتخذوا من اسمه علما على كل من يشبهه فى صورته عندهم ، وصحفوا ذلك الاسم تصحيفا يدل على مصادره الأمية ، فعرفوه باسم «أبىالنواس» بتشديد الواو وزيادة الالف واللام للتعريف على الدوام

ولم يكن شذوذ هذا الشاعر عن هذه القـاعدة لسهولة شعره ، فان الأميين الذين يتناقلون أخباره ونوادره لا ينقلون بيتا واحدا من شعره ولا يروونه مصحفا أو بغير تصحيف ، وانما يعرفون الشاعر « شخصية » ذات أخبار ولا يعرفونه قائلا ينظم الاشعار

ولم تكن هذه الشهرة أيضا لقرب عهده وقصر الزمن بينه وبين رواته المتأخرين ، فان النواسى عاش فى القرن الثانى للهجرة ، وهؤلاء الأميون الذين يتناقلون أخباره المزعومة قد يجهلون أسماء الشعراء والأدباء فى عصرهم أو هم يجهلون على التحقيق أسماء الشعراء والأدباء بعد القرن الثانى للهجرة بلا استثناء ، ما عدا هذا الاستثناء

ولكن هذا الاستثناء لم يكن على أية حال مصادفة لغير سبب ، كما سنرى فى موضع البيان عن أسباب هذه الشهرة عند نشأتها الاولى ، ومتى وجدت الشهرة فهى قابلة بعد ذلك للاضافة والزيادة ، ولو من غير القبيل الذى نشأت من أجله فى مرحلتها الأولى

واذا كان هذا شأن الأميين فى التحدث بأخبار الشاعر المجدود فلا عجب أن يتحدث به أشباه الاميين وهم أقرب الى الادب المقروء فى الكتب والقدرة على فهم القليل منه ، ان فاتهم فهم أكثره وأصحه

ونعنى بأشباه الأميين أولئك الذين يقرءون ولا يقدرون على تصحيح نسبة الكلام واستقصاء وجوه التصحيح . فاذا سمعوا كلاما لشاعر مشهور غيره ، جاز عندهم أن يكون لهذا أو لذاك ، وان كان الفارق بينهما واضحا لنقاد الأدب ورواته المتثبتين

هؤلاء القراء أشباه الأميين يعرفون النواسى كاخوانهم الأميين أى يعرفونه لأنه شخصية ذات أخبار ، وقلما يعنيهم منه ذلك الشعر الذى ينسبونه اليه سواء صحت نسبته اليه أو الى غيره ، أو كان مختلقا ملفقا لا تصح نسبته الى أحد من الشعراء المشهورين

والغالب على هذه الشخصية أنها شخصية النديم اللاهى — «الحاذق» ... ونكاد نكتبها « الحدق » بالدال وعلى غير صيغة اسم الفاعل ، لأن « الحداقة » كما يفهمها العامة هى أم الصفات التى تغلب على « النواسى » فى روايات أشباه الأميين ومنها سرعة الجواب والفهم بالأشارة ، أو الفهم الذى يوشك أن يكون اطلاعا على الغيب ، مع اللباقة فى اللعب بالكلام أو اللعب بالافهام على حسب المقام ، ولا سيما مقام اللهو واللغو ونبذ الحياء والملام ..

وليس أشهر من الأدب المنسوب الى أبى نواس فى الكتب التى تروج بين أشباه الأميين ، ومنها ألف ليلة وليلة واعلام الناس فيما جرى للبرامكة مع بنى العباس ، وقليله يغنى عن الكثير

« قيل ان أمير المؤمنين هارون الرشيد أرق ذات ليلة فقام يتمشى فى قصره بين المقاصير فرأى جارية من جواريه نائمة فأعجبته فداس على رجلها ، فانتبهت فرأته ، فاستحيت منه وقالت : يا أمين الله ما هذا الخبر ؟ فأجابها يقول :

قلت ضيف طارق فى أرضكم هل «تضيفوه» الى وقت السحر

فأجابت بسرور سـيدى أخدم الضيف بسمعى والبصر

فبات عندها الى الصباح ، فلما كان الصباح سأل : من بالباب من الشعراء ؟ قيل له : أبو نواس ، فأمر به فدخل عليه ، فقال : هات ماعندك على وزن يا أمين الله ما هذا الخبر ... فأنشد يقول :

طال ليلى وتولانى السـهر فتفكرت فأحسنت الفـكر

الى أن يقول :

فاذا وجـه جميـل مشرق زانه الرحمن يزرى بالقـمر
فلمست الرجل منهـا موطئـا فدنت منى ومـدت بالبصر
وأشـارت لى بقـول مفصح يا أمين الله ما هـذا الخبر ؟
قلت ضيف طارق فى أرضـكم هل «تضيفوه» الى وقت السحر

الى آخر البيتين ..

فتعجب أمير المؤمنين وأمر له بصلة

« وذكر الخطيب فى بعض مصنفاته أن الرشيد دخل يوما وقت الظهر الى مقصورة جارية تسمى الخيزران على غفلة منها ، فوجدها تغتسل فلما رأته تجللت بشعرها حتى لم ير من جسدها شيئا ، فأعجبه منها ذلك الفعل واستحسنه ، ثم عاد الى مجلسه وقال : من بالباب من الشعراء ؟ قالوا : بشار أبو نواس . فأمر بهما فحضرا وقال : ليقل كل منكما أبياتا توافق ما فى نفسى ، فأنشأ بشار يقول :

تحببتكم والقلب صار اليـكم بنفسى ذاك المنـزل المتحبب

الى أن يقول :

وقالوا تجنبنا ولا قرب بيننـا وكيف وأنتـم حـاجتى أتجنب
على انهم أحلى من الشهد عندنا وأعذب من ماء الحيـاة وأطيب

فقال الخليفة أحسنت ، ولكن ما أصبت ما فى نفسى ، فقل أنت يا أبا نواس . فجعل يقول :

نضت عنهـا القميص لصب ماء فورد خـدها فرط الحيـاء
وقابلت الهواء وقـد تعـرت بمعتـدل أرق من الهـواء

ومدت راحـــة كالمـــاء منها | الى ماء معـــــــــد فى اناء
فلمـــا ان قضت وطرا وهمت | على عجـل لتـــأخذ بالرداء
رأت شخص الرقيب على اقتراب | فأسبلت الظـــلام على الضياء
وغاب الصبح منهـــا تحت ليل | فظل المـــاء يجـــرى فوق ماء
فســبحان الاله وقـــد براها | كأحسن ما تكون من النســـاء

فقال الرشيد : سيفا ونطعـا يا غـلام ! قال أبو نواس : ولم يا أمير المؤمنين ؟ قال : أمعنا كنت ؟ قال : لا والله . ولكن شيئا خطر ببالى .. فأمر له بأربعة آلاف درهم !

وأمثال هذه الحكايات كثير ، حد « الحذاقة » فيها ــ أو « الحداقة » ــ هو حدها عند أشباه الأميين .. وهو شرطهم فى أرباب الفن الى هذه الأيام ..

أخباره عند الأدباء

وغنى عن القول أن أخبار النواسى ليست متصورة على الأميين وأشباه الأميين ، ولكن اهتمام الاميين وأشباه الاميين بها هو وجه الغرابة فى هذا الباب من الادب ، واما العـارفون بأدب الفصحى فلا وجه للغـرابة فى اهتمامهم به وبأمثاله من موضوعات الآداب والفنون

على أن الامر فى هذه الناحية لا يخلو من غرابته التى تخص أخبار أبى نواس بخاصة ، لم يشاركه فيها أعلام الشعر والثقافة الفنية ، فان رواة الادب الصحيح لا يهتمون بأبى نواس وأنداده من الاعلام على نحـو واحد . بل يلوح عليهم أنهم يودون لو يشركونه بسهم فى سيرة كل أديب ، ويحبون اذا نسب الخبر اليه أو الى غيره أن يؤثروه به لو استطاعوا وأن يجعلوه من مروياته ومأثوراته دون المرويات والمأثورات عن سواه

فصاحب العقـد الفريد ــ ابن عبـد ربه ــ من أعلم الرواة بأخبار الشعراء ... ولكنه يروى عن أبى نواس بعض الاخبار التى نقلناها فيما تقدم عن الأميين وأشباه الأميين ، ويضيف اليه أخبارا مشهورة عن ذى

الرمة وصاحبته مية ، ونعنى بهـا تلك الأخبار التى تدور حول البيتين المنسوبين اليه وهما :

على وجـه مى مسحة من ملاحـه
وتحت الثياب العـر[١] لو كان باديا
ألم تر ان المـاء يخبث طعمـه
ولو كان لون المـاء فى العين صافيـا

وقد سئل ذو الرمة عنهما فأنكرهما وقال : وكيف أقول هذا وقد قطعت دهرى وأفنيت شبابى أشبب بها ! »

فيأتى صاحب العقد الفريد ولا يبالى كذب الرواية من أصلها ويحتفظ بها ليسندها الى أبى نواس بلسان أبى بكر الوراق ، وهذا مقال من المقامات الفنية التى يؤلفها خاصة الأدباء تأليفا ليذكروا فيها ملحمة أو طرفة عن ذلك الشاعر المجدود

روى عن أبى بكر الوراق عن الحسن بن هانىء أنه قال : حججت مع الفضل بن الربيع حتى اذا كنا ببلاد فزارة ، وذلك ابان الربيع ، نزلنا منزلا بازاء ماء لبنى تميم ذا روض أريض[٢] ونبت غريض ، تخضع لبهجته الزرابى[٣] المبثوثة والنمارق المصفوفة ، فقرت بنضرتها العيون وارتاحت الى حسنها القلوب وانفرجت لبهائها الصدور ، فلم نلبث أن أقبلت السماء فانشق غمامها وتدانى من الارض ركامها ، حتى اذا كانت كما قال أوس بن حجر حيث يقول :

دان مسف فوق الارض هيدبه   يكاد يدفعـه من قام بالراح

همت برذاذ ثم بطش ثم بوابل ، ثم أقلعت وغادرت الغـدران مترعة تتدفق ، والقيعان تتألق ، رياض مونقة ونوافح من ريحها عبقة ، فسرحت طرف منها فى أحسن منظر ، ونشقت من رباها أطيب من المسك الاذفر ، فلما انتهينا الى أوائلها اذا نحن بخباء على بابه جارية مشرقة ، ترنو بطرف مريض الجفون ، وسنان النظر ، أشعرت حماليقه فترة وملئت سحرا ، فقلت لزميلى : استنطقهـا .. قـال : وكيف السـبيل الى ذلك ؟ قلت

---

(١) العر : الجرب • (٢) روض أريض : كثر كلاه ونباته • (٣) الزرابي: جمع زربية وهي الوسادة وكل ما بسط واتكيء عليه •

استسقها ! فاستسقاها ، فقالت : نعم ونعما عين ، وان نزلتم فعلى الرحب والسعة ، ثم مضت تتهادى كأنها خوط[1] بان أو قضيب خيزران ، فراعنى ما رأيت منها ، ثم أتت بماء فشربت منه وصببت باقيه على يدى ، ثم قلت : وصاحبى أيضا عطشان ! .. فأخذت الاناء فذهبت فقلت لصاحبى : من الذى يقول :

اذا بارك الله فى ملبس   فلا بارك الله فى البرقع
يريك عيون الدمى غـرة   ويكشف عن منظر أشنع

.. وسمعت كلامى فأتت وقد نزعت البرقع ولبست خمارا أسود وهى تقول :

ألا حى ربعى معشر قد أراهما   أقاما فما أن يعرفا مبتغاهما
هما استسقيا ماء على غير ظمأة   ليستمتعا باللحظ ممن سقاهما

فشبهت كلامها بعقد در وهى فانتثر ، بنغمة عذبة رخيمة ، لو خوطب بها صم الصلاب لانبجست ، مع وجه يظلم فى نوره ضياء العقول ، وتتلف من روعته مهج النفوس ، وتخف فى محاسنه رزانة الحليم ويحار فى بهائه طرف البصير ..

فدقت وجلت واسبكرت وأكملت   فلو جن انسان من الحسن جنت

فلم أتمالك أن خررت ساجدا ، فأطلت من غير تسبيح ، فقالت : ارفع رأسك غير مأجور ! لا تذم بعدها برقعا فلربما انكشف عما يصرف الكرى ويحل القوى ويطيل الجوى ، من غير بلوغ ارادة ولا درك طلبة ولا قضاء وطر ، ليس الا للحين المجلوب والقدر المكتوب والامل المكذوب ، فبقيت والله معقول اللسان عن الجواب حيران لا أهتدى لطريق ، فالتفت الى صاحبى وقال : ما هذا الجهد بوجه برقت لك منه بارقة لا تدرى ما تحته أما سمعت قول ذى الرمة :

على وجه مى مسحة من ملاحه   وتحت الثياب العر لو كان باديا

فقالت : أما ما ذهبت اليه فلا أبالك . وانى لأنا بقول الشاعر :

منعمة حوراء يجرى وشاحها   على كشح مرتج الروادف[2] أهضم

(١) خوط بان : الخوط بالضم : الغصن الناعم لسنته ٠ (٢) الروادف : جمع ردف وهو الكفل وعجيزة المرأة ٠

لهـــا أثر صاف وعين مريضـــة وأحسن ابهـــام وأحسن معصم
خزاعية الاطراف ســـعدية الحشا فـــزارية العينين طـــائية الفـــم

أشبه من قولك الآخر .. ثم رفعت ثيابها حتى بلغت بها نحرها وجاوزت منكبيها ، فاذا قضيب فضة قد أشرب ماء الذهب . ثم قالت : أعرا ترى لا أبالك ؟ قلت : لا والله ، ولكن سبب القدر المتاح ، ومقربى من الموت الذباح[1] يضيق على الضريح ويتركنى جسدا بغير روح

فخرجت عجوز من الخباء ، فقالت له امض لشأنك ، فان قتيلها مطلول لا يودى وأسيرها مكبول لا يفدى ، فقالت لها : دعيه . فان له مثل قول غيلان ذى الرمة :

وان لم يكن الا تعلل ســـاعة قليلا ، فانى نافع لى قليلهـــا

فولت العجوز وهى تقول :

وما نلت منها غير انك «واصل» بعينيك عينيها فهـــل ذاك نافع ؟

فنحن كذلك حتى ضرب الطبل للرحيل ، فانصرفت بكمد قاتل وكرب خابل وأنا أقول :

واحسرتا ممـــا يكن فؤادى أزف الرحيل بعبرتى وبعـــادى

فلما قضينا حجنا وانصرفنا راجعين مررنا بذلك المنزل وقد تضاعف حسنه ونمت بهجته ، فقلت لصاحبى : امض بنا الى صاحبتنا ، فلما أشرفنا على الخيام وصعدنا ربوة ونزلنا وهدة اذا هى تتهادى بين خمس ماتصلح أن تكون خادمة لادناهن وهن يجنين من نور ذلك الزهر ، فلما رأيننا وقفن وقلنا : السلام عليكن . فقالت من بينهن : وعليك السلام ، ألست صاحبى قلت : بلى ! قلن : وتعرفينه ؟ قالت : نعم ، وقصت عليهن القصة ماخرمت حرفا .. قلن : ويحك ! أما زودته شيئا يتعلل به ؟ قالت : بل زودته لحدا ضامرا وموتا حاضرا ! فانبرت لها أنضرهن خدا وأرشقهن قدا ، وأسحرهن طرفا وأبرعهن شكلا ، فقالت : والله ما أحسنت بدءا ولا أجملت عودا ولقد أسأت فى الرد ولم تكافئيه على الود ، فما عليك لو أسعفته بطلبته وأنصفته فى مودته ؟ وان المكان لخال ، وان معك من لا ينم

---

(١) الذباح : بضم الذال : وجع في الحلق ويقال موت ذباح كما يقال : موت ذؤام .

عليك .. فقالت : أما والله لا أفعل من ذلك شيئا حتى تشركينى فى حلوه ومره ! قالت لها : تلك اذن قسمة ضيزى(١) ! تعشقين أنت وأوخذ أنا ؟ .. قالت أخرى منهن : قد أطلتن الخطاب فى غير ارب فسلن الرجل عن نيته وقصده وبغيته . فلعله لغير ما أتتما فيه قصد . فقلن حياك الله وأنعم بك عينا ، ممن ؟ ومن أنت ؟ وما تعانى ؟ والام قصـــدت ؟ قلت أما الاسم فالحسن بن هانىء من اليمن ثم من سعد العشيرة ، وخير شعراء السلطان الاعظم ومن يدنى مجلسه ويتقى لسانه ويرهب جانبه ، وأما قصـــدى فتبريد غلة واطفاء لوعة قد أحرقت الكبد وأذابتها قالت : لقد أضفت الى حسن المنظر كرم المخبر وأرجو أن يبلغك الله أمنيتك وتنال بغيتك . ثم أقبلت عليهن فقالت ما واحدة منكن الا ملتمسة مرغبة فتعالين نشترك فيه وتتقارع عليه ، فمن واقعتها القـــرعة منا كانت هى البادئة . فاقترعت فوقعت القرعة على المليحة التى قامت بأمرى ، فعلقن أزارا على باب الغار وأدخلت فيه وأبطأت على ، وجعلت أتشوف(٢) لدخول احداهن على ، اذ دخل اسود كأنه سارية .. ثم صحت بصاحبى وكان متدانيا .. ووالله ما تخلصت منه حتى خرجنا من الغار ، واذا هن يتضاحكن ويتهادين الى الخيمات . فقلت لصاحبى : من أين أقبل الاسود ؟ قال : كان يرعى غنما الى جانب الغار فدعوته فوسوسن اليه شيئا فدخل عليك .. »

***

والقصة كلها كما يرى القارىء مقامة مؤلفة ، وتلك علامة على تمكن شهوة الكلام عن الشاعر فى سياق الخبر التـــاريخى أو سياق الاختراع والتأليف ..

وتتم الغرابة بالمصادر الاجنبية القليلة التى عنيت بأبى نواس من جانب الأدب أو من جانب النوادر والاقاصيص الموضوعة ، فانها سايرت مصادر العربية فى هذه النزعة وأسندت الى أبى نواس ما حدث وما لم يحدث ، أو ما حدث منه وما حدث من غيره ، ومنها رسالة انجليزية طبعت فى احدى الجزر الهندية وأهداها مؤلفها الى ذكرى الاستاذ « برتون »

---

(١) قسمة ضيزى : جائرة غير عادلة . (٢) أتشوف : تشوف الرجل لكذا : طمح بصره اليه والى الخبر تطلع اليه .

مترجم ألف ليلة وليلة ، وقسمها الى أخبار « أبوكريفية » تشبيها بالأخبار التى يدسها بعض الرواة على الكتب الدينية ، والى أخبار خرافية من قبيل الأساطير والغرائب المروية عن عجائب المخلوقات ، وهذه احدى نوادرها « الابوكريفية » ..

« كان أبو نواس يلهـو ويقصف بين صحبه فاذا الخليفـة يفجؤهم بحضوره ، ويسوءه مايرى فيصيح بأبى نواس متأففا : ما أراك تصلح الا أن تكون اماما للقوادين وقاضيا للفجرة الفاسقين . فأجابه أبو نواس وهو لا يعيى بالجواب على البديهة : وهل من قضية تعرضونها ؟ فغضب الخليفة وأمر به من الغد حيث دخل الديوان أن يجردوه من ثيابه ويضعوا على ظهره بردعة حمار .. ويطوفوا به بين الخدم والجوارى ليسخروا منه ويعبثوا به ثم يسلموه الى الجلاد يطيح برأسه ، ولكن أبا نواس الذى لايغلب ظرفا وفكاهة لم يزل يلطف الجوارى بدعابته وطرائف نكاته ، ولم تزل هداياهن تنثال عليه حتى عاد من مطافه ممتلىء اليدين بالمال والجوهر ، ورآه الوزير جعفر البرمكى وهو بهذه الحالة فسأله : فيم كان عقابه ولأى شيء يحمل بردعة الحمار على ظهره ؟ فأجابه فى غير مهل : ما من شيء صنعت الا أننى مدحت أمير المؤمنين فخلع على خلعة من خاصة ثيابه . ونقلوا الى الخليفـة ما قال فضحك وعفا عنـه وأمر له بهـدية وخلعة سنية »

وهذه بعض نوادره التى جمعها المؤلف من افريقية الشمالية : قيل ان الشاعر كان يمشى فى جنازة فسأله بعضهم : أيهما أكرم فى تشييع الميت ، ان تمشى أمام نعشه أو تتبعه ؟

قال أبو نواس :

لا تكن داخـل النعش وسر حيث طاب لك السير

وأمر الخليفة ذات يوم بجلده مائة جلدة لانهم وجدوا معه قارورة خمر فارغة يذهب بها ليملأها

فسأل أبو نواس ، وعلام الجلد يا أمير المؤمنين ؟

قال الخليفة : على الخمر التى ستملأ بها القارورة

قال : اذن فاحكم على بالموت .. لاننى أحمل لسانا قد يكفر بالله

ورئى أبو نواس يوما سكران يتمايل فى الطريق ، فعجب الناظرون وسألوه : ألم تنظر من قبل الى سكران ؟

قال : ومن أين لى أن أرى السكارى وأنا أول من يسكر وآخر من يفيق ؟! ..

نوادره الأسطورية

أما النوادر الاسطورية فقد جمعها المؤلف من مصادر لا يخطر على بال الكثيرين أنها سمعت باسم أبى نواس ، ومنها القبائل التى تسكن سواحل افريقية الجنوبية مما يلى زنجبار وتتكلم « اللغة السواحلية » وهى مزيج من الزنجية والعربية والهندية والفارسية ، وبعض حكاياتها منقول عن أقوام افريقية الاصـــلاء الذين تدور حكاياتهم على السحرة والـــكهان والعفاريت ..

ويقول المؤلف فى تقديم هذا القسم من كتابه ان شهرة أبى نواس وصلت الى هناك مشافهة « وانه يعرف بين السواحليين من أهل زنجبار باسم كيبو نواسى وبنواسى وبانواسى وأبا نواسى .. ومن تصوراتهم له أنهم يلبسونه شخصية الارنب الذى نعرفه نحن فى ألعاب خيال الظـــل لأنهم يمثلونه سريع الفطنة حاضر الجواب ، ويلبسونه شخصية أخرى هى شخصية خيال الظل فى زنجبار ولعله أصل صاحبنا الأرنب . واسم هذه الشخصية فى اللغـــة السواحلية بواليم كرجوش ، وهى كلمة تمت الى الأرنب لأنها بالفارسية شرجوش وتعنى الأرنب

« ومقطع « كى » الذى يقدمون به اسم « كيبو نواسى » تصغير لكلمة الشاعر فى اللغة السواحلية حيث يتخيلونه ضئيل الجسم عظيم الفطنة ، ويقال ان اسم النواسى قد أصبح علما على كل من كان عنـــده جواب حاضر لكل سؤال ومخرج قريب من كل ورطة ، أو علم على اللبيب الذى

نقول نحن انه يضحك كثيرا لأنه يضحك أخيرا » (١)

ومن أمثلة هذه الحكايات حكاية أنقذ فيها أبو نواس مسكينا متسولا من براثن تاجر جشع طالبه بعوض عن رائحة طعامه . قالوا : « ان تاجرا ذبح معزة ومر به مسكين فجلس الى جانب القدر لعله يستسيغ الخبز القفار باستنشاق رائحتها . ثم لقى التاجر فقال له : انك أيها السيد قد أحسنت الى أمس اذ منحتنى رائحة معزتك فاصطبغت بها هنيئا : فأخذ التاجر بتلابيبه وهو يقول له : الآن علمت كيف ضاعت النكهة من لحمها . فقد اختلستها انت اذن ولا ندرى . وساقه الى هارون الرشيد — وقد كان شديد المحاباة للتجار — فحكم على المسكين بتغريمه اثنتى عشرة روبية يأخذها التاجر ثمنا لنكهة ذبيحته . وخرج المسكين يبكى لأنه لايملك فلسا من هذه الغرامة ، فوجد أبا نواس فى الطريق وعطف عليه أبو نواس حيث علم منه سبب بكائه ، ووعده أن يساعده ، ثم أعطاه اثنتى عشرة روبية وأوصاه أن يغدو بها الى السلطان ولا يؤديها له حتى يحضر هو مجلسه . ثم كان الغد فجاء الى المجلس ورأى المسكين يعد الدراهم فأخذها منه ورنها على الأرض ، وسأل التاجر : أسمعت رنينها ؟ قال نعم ؟ ومد يده الى الدراهم يريد أن يقبضها . فرده أبو نواس وصاح به حسبك . لقد وصل اليك الثمن رنينا برائحة . فاذا كان المسكين قد شبع من رائحة طعامك فأنت حرى أن تملأ يدك من رنين دراهمه . وترك الروبيات للمسكين وانصرف الى داره

والى جانب هذه الحكاية وما جرى مجراها حكايات مطولة يقول المؤلف انها تسمع الى الآن بين القبائل الزنجية وتنقل عن غيرها من القبائل التى تتداول طرائف السحرة وأصحاب التعاويذ والكهانات ، ولاريب أن أبا نواس قد انفرد بهذه الخاصة بين أدباء العربية فى جميع العصور ، ولا يقدح فى هذه الحقيقة أن الاميين وأشباه الأميين يروون النوادر عن عنترة بن شداد ويضيفون اليه غرائب الشجاعة والاقدام . فان نوادر عنترة بين الأميين

(1) Abu Nawas in Life and Legend, by W. H. Ingrams.

وأشباه الأميين أقل كثيرا من النوادر النواسية فى بابها أو فى أبوابها ، فقد أصبحت لها أبواب ولم تنحصر فى باب واحد

ماسر هذه الشهرة المتفردة ؟

سرها بالايجاز أن أبا نواس قد أصبح عند عارفيه الأولين « شخصية نموذجية » أى شخصية تمثل نموذجا اجتماعيا يعيش فى كل زمن ، وسر رجحانه على الشخصيات النموذجية من قبيل عنترة بن شداد أن وقائع الشجاعة أندر من وقائع « الحذاقة » فى المجتمع ، وأنها لا تصادف الناس فى كل زمن كما تصادفهم الوقائع التى تدخل فى مجال الشخصية النواسية

وقد قيل ان الناس مولعون بالتحدث عن الشخصيات النموذجية يضيفون اليها كل خبر من جنس أخبارها

وهذا صحيح .. فقد أضاف الناس كثيرا من أخبار الجود الى حاتم الطائى وهى لم تقع له ولا لأحد من الكرماء المعروفين ، وبعضها قد وقع لأناس آخرين على سبيل التحقيق

وكذلك فعلوا بأخبار الحكمة مع لقمان ، وأخبار الشجاعة مع عنترة وأخبار الطب مع بقراط ، وأخبار كل شخصية نموذجية سمعوا بها فى زمن من الأزمان

لكن الأصح أنهم يضيفون الى الشخصيات النموذجية ماهو من جنس أخبارها وما ليس من جنسها ، فاذا كان الأمر الأعم أنهم يراعون التناسب فى جنس الأخبار فلا يمتنع مع هذا أنهم يضيفون اليها أخبارا أخرى لاتناسب بينها وبين تلك الشخصيات ، ويكفيهم منها أنهم يعرفون علما مشهورا يتكلمون عنه كلما أرادوا التعالم بمعرفة المشهورين

ومن طرائف ماحدث لنا من ذلك ونحن ندرس « الانشاء » فى احدى المدارس الثانوية أن تلميذا نقل فى موضوعه عدة أسطر من الشواهد الفلسفية نسبها الى الشاعر ملتون الانجليزى ، واتفق فى ذلك الحين أننى كنت معنيا بمعارضة قصائد ملتون على رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ، وكنت أعيد النظر فى كل ماكتب ملتون من المنظوم والمنثور ، ولم يكن

الكلام الذى نسبه التلميذ الى ملتون مما يناسب أقوال هذا الشاعر وموضوعاته ، ولم أذكر أننى رأيت له كلاما مثله ، فلما حققت الأمر علمت أن التلاميذ قد جروا على هذه العادة للتهويل على أساتذة اللغة العربية الذين لا يعرفون لغة أجنبية ، وان التلميذ رأى أمامه مدرسا عربيا فلم يخطر له أنه يعرف لغة غير العربية ، ولم يخطر له بطبيعة الحال أن ملتون كان موضوع قراءته الوحيد على وجه التقريب فى ذلك الحين ، فادعى ما ادعاه وهو يحسب أنه فى أمان ، وأنه على ثقة من زيادة درجة أو درجتين

ولما سألته على مسمع من زملائه بالانجليزية : أين وجدت هذه العبارة من كلام ملتون ؟ دهش ولم يكد يصدق أذنيه ، ثم تبين أنه من الجهل بملتون وكلامه بحيث لايعلم أنه صاحب كتب ومصنفات ، وكل ماعرفه عنه أبيات من المحفوظات سمع أخاه يستظهرها وسمع أن ملتون هو ناظمها ..!

وليس أكثر بين العامة والجهلاء من الاحالة على أقوال المشاهير الذين لا يعرفون عنهم شيئا غير أسمائهم ، فمنهم من يحيل على مشاهير عصره ومن يمعن فى التعالم فيحيل على مشاهير العصور الغابرة ، ومنهم من له لباقة الوضع والاختلاق فهو مجتهد فى وضع الأقوال التى ينحلها مشاهير الرجال حسبما يتوهم من مقدرتهم ومأثور أقوالهم ، ولهذا يتفق أحيانا أن تنحرف « الشخصية النموذجية » من دلالتها الأولى الى غير تلك الدلالة ، حتى يتباعد مابينهما وتصلح كل منهما لتمثيل شخصية نموذجية غير الشخصية الأخرى ..

وعلى هذا النحو انحراف شخصية « لقمان الحكيم » فانها تستحق وحدها دراسة مستقلة من هذه الوجهة دون غيرها ، ونعنى بها دلالة « الشخصية النموذجية » فى العصور المتتابعة وكيف يطرأ عليها الانحراف عن وضعها الأول شيئا فشيئا حتى يصح أن تصبح عنوانا على انسان آخر أو عدة أناس غير صاحبها

ففى مبدأ الأمر عرف لقمان بطول العمر وامتداد الأجل فى أزمنة متعاقبة ثم تأول المتأولون طول عمره بحكمته وسحره وعرفانه سر الحياة والموت ،

وانه بهذه المعرفة قرن عمره بأعمار سبعة نسور كان يربيها عنده واحدا بعد واحد حتى انتهى أجله بانتهاء أجل النسر السابع فمات معه فى لحظة واحدة ، ومن حكمة المواعظ والسحر والعلم بأسرار الحياة تحولت حكمة لقمان « الحكيم » الى الطب والعلاج وغلبت عليه خلة القدماء الذين تعودوا أن يكتموا عن الناس أسرار صناعاتهم فلا يبوحون بها الا على قدر ولا يختصون بها غير الصفوة المختارين من تلاميذهم ومريديهم ، ولاشك أن حكاية « ماء اللفت » هى أحدث هذه الأخبار الموضوعة أو المختلفة ، ولكنها مع ذلك حملت معها بقايا العصور الغابرة من أوصاف هذه الشخصية النموذجية كما عرفها على التتابع أبناء تلك العصور

وخلاصة الحكاية التى تروى على عدة روايات أن ولى الأمر فى عهد لقمان حبسه لغضبه عليه أو خوفه من سحره ومكره ، أو لضنه عليه وعلى الناس بأسرار حكمته وطبه ، ثم سمع فى حبسه بمرض انسان يوشك أن يموت ودواؤه فى ماء اللفت ، وشق عليه أن يخالف عاداته أو يخالف أمر الحاكم فلم يشأ أن يبوح بسر الشفاء الا بأسلوب التورية والجناس، فصاح فى سجنه يقول : « مات العليل وما ألفت له دوا » .. فعلم السامع العليم بأسلوبه أن ماء اللفت هو دواء العلة ، فأعطاه الدواء وشفاه

وفى هذه الحكاية مسحة من كل شخصية نموذجية تشكل بها لقمان فى تاريخه ، وآخرها شخصية الطبيب التى لم تظهر فى العلم الحديث الا حين شاعت تسمية الطبيب بالحكيم ، وشاع التداوى بماء اللفت بين العامة وهم يتداوون به الى اليوم

الشخصية النموذجية

وقد انحرفت « الشخصية النموذجية » التى عرف بها أبو نواس على هذا النحو فصارت فى آخر الأمر الى هذا النموذج الأخير ، وذاك هو نموذج الحاذق اللبق السريع الى الجواب المفحم ذى الدراية بالمخارج السهلة من الورطات العسيرة ، وقد كان أبو نواس ولاريب على حظ من

اللباقة غير قليل ، وكان يحسن الجواب ويتحيل على اللذات ، ولكنه لم يكن آية الآيات فى زمنه على سرعة الجواب والخروج من المآزق ، بل لعله كان الى التورط فى المآزق أقرب منه الى الدراية بمخارجها ، ولعله كان من أولئك الذين نسميهم فى عصرنا « باللخمة » لتعذر الجواب عليه فى مواقف الحرج ، فلم يكن يحسن الدفاع عن نفسه حين تتألب عليه التهم بين أيدى الخلفاء والأمراء ، ويروى فى أخبار مجونه أنه كان يذهب الى مجالس القيان متعمدا اخجالهن فينقلب الأمر عليه ويخجلنه ويفحمنه فلا يحير جوابا ولا يقدر على البقاء فى المجلس ، وأبياته فى جنان مشهورة حيث يقول :

وان وقفت له كيما يكلمني
فى الموضع الخلو لم ينطق من الحصر[1]

ولا يكون كذلك من هو مثال « الشخصية النموذجية » فى سرعة الجواب وافحام النظراء ، ونحسب أنه لم يكن صالحا بطبيعة تكوينه للافحام والاحراج ، فانه كان — كما تواتر وصفه — الثغ نحيف الصوت مضطرب الأعصاب ، وليس أيسر من احراج مثله بمحاكاة لثغته ونحافة صوته واضطرابه ، وانما آلت « شخصيته النموذجية » الى هذه الصورة بحكم الشهرة وما يفهمه كل جيل من مناسباتها وأحوالها ، فاذا تحولت به الشهرة من شخصيته الأولى الى شخصية الشاعر الملازم للبلاط المنادم للامراء فى ساعات السكر والغضب والنزوات والبدوات فلا جرم تكون النكتة الحاضرة والحيلة السريعة من أدواته وآلاته ، ويصبح تصور الناس لصفات الشاعر هنا تابعا لما يتصورونه من صفات الأمير المطاع ، حتى ليكون من صفاته فى بعض الأزمنة أنه يغضب ويأمر بالقتل بغير سبب ، وأنه يدين ويعفو فى لحظة واحدة ، وأنه لا يقبل الكلام الا أن يكون من باب الملحة أو الكناية أو الجناس

هذه الشخصية النموذجية « حديثة » ولا ريب طرأت بعد عصر أبى نواس بعدة أجيال ، وسنعرض لحقيقة هذه الشخصية فى الفصول التالية

---

(١) الحصر : العي في المنطق .

ونعود به الى الأصل الذى نجم منه النموذج الأول ، ولكننا نزيد على ما تقدم فى هذا الفصل أن الشهرة النادرة التى ظفر بها أبو نواس لم يكن مدارها كلها على شخصيته النموذجية ، بل يرجع الكثير منها الى اقترانه بطراز آخر من الشخصية النموذجية لعله أشهر أمثاله فى التاريخ العربى أو فى تاريخ العالم ، وتلك هى شخصية هارون الرشيد الذى قيل عن أبى نواس أنه كان شاعره ونديمه ، وأنه كان يلازمه فى حله وترحاله ، ويطلع على اسرار بيته وخفايا حريمه

***

ولأمر ما شاعت عن هارون الرشيد هذه الشهرة ، وتعلم من لا يعلم شيئا عنه أن يتشبه به كلما قضى ليلة لهو ومرح وخيل اليه أنه أحاط نفسه بكل ما يشتهيه المشتهى من الترف والمتاع ، ولم يكن هارون الرشيد بهذه الصفة على التحقيق ، ولم يكن شاهروه بهذه السمعة جميعا يحسنون النية ويجهلون معنى مايفترون ؛ فربما كان منهم من يحنق على الخلافة العباسية ويختلق المثالب لها ولأقطابها على سبيل الدعوة لخصومها . وربما كانت نوادر ألف ليلة كلها أو جلها من الأخبار الموضوعة للتشهير بدولة والترويج لدولة غيرها ، وقد كان أبو نواس ذريعة للتشهير بالخلفاء فى زمانه قبل تمادى الزمن واختفاء الحقيقة أو نسيانها ، فكان أعداء الخليفة الأمين ابن هارون يعيبونه فلا يجدون فى عيبه ماهو أقدح وأقبح من مصاحبة أبى نواس وتقريبه الى مجلسه ، فلا عجب أن تعمل الدعوة بعد قرن أو قرنين عملا يجول فيه الملفق والمفترى كل مجال ، ولا يرى من يعترضه بين العامة اذا جمع فى تهمة واحدة بين الخليفة المثالى من بنى العباس والشاعر المثالى من أبناء عصره ، وهو أبو نواس

والمحافظة على اسم ذى كلمتين أسهل من المحافظة على معالم شخصية انسانية تحتاج المحافظة عليها الى علم بخصائص الطباع والنفوس وعلم بوقائع التاريخ ومطامع السياسة . ولكن الطوائف التى شاع بينها اسم هارون الرشيد كانت كالطوائف التى شاع بينها اسم أبى نواس ، أو كانت

هى اياها كما يقول النحاة . فتناولت بالتحريف اسمه كما تناولت معالم شخصيته ، وسمته هارون الرشيدى كما سمت صاحبنا أبا النواس بتشديد الواو ، ولعل تلقيب هارون الرشيدى قد نشأ فى مصر مع أقوال الدعاة الفاطميين فيها فحسبه المتحدثون والسامعون منسوبا الى رشيد أو سبقت النسبة الى ألسنتهم لأنهم يسمعونها مقترنة بكثير من الأسماء ، ولا نخالها من تصحيف المطبعة حين طبع كتاب ألف ليلة وليلة بمصر غير مرة ، فان تصحيف المطبعة انما جاء على ماهو ظاهر بعد تصحيف اللسان

***

وجملة القول أن « شخصية نموذجية » واحدة تفعل الأعاجيب فى تزويد صاحبها بالأخبار والأوصاف من حيث لا يحتسب ، فماذا تفعل شخصيتان اثنتان ؟! ..

لا جرم يظفر الحسن بن هانىء بنصيب من الأخبار والاوصاف والمعالم الشخصية لم يظفر به شاعر عربى غيره فى المشرق أو المغرب ولا فى الزمن القديم أو الزمن الحديث .. ولا جرم يحتاج بعد ذلك الى تمييز وجهه الصحيح بين شتى الوجوه التى عرضت على الناس باسم أبى نواس

الا أننا نعود فنقول ان هذا النصيب الكبير من الشهرة لم يأت من جانب « الشخصية النموذجية » وحدها ولا من تلاقى الشخصيتين النموذجيتين بالحق وبالباطل حيث التقت شخصية الشاعر وشخصية الخليفة ..

فمن مزايا السمعة السيئة أنها تكف الحسد عن صاحبها من ذوى السمعة الحسنة ..

وقد كان أبو نواس سيىء السمعة ولا مراء ، وكان من أنداده الشعراء وأضرابه فى سوء السمعة من يحسده وينفس عليه مكانته ولهج الناس بأخباره وأشعاره . أما ذوو الوقار من علماء الأدب واللغة ورواة الشواهد والأمثال فقد هان عندهم فى ميزان الجد والوقار فلم يحسدوه ولم يضنوا عليه بالشهادة « اللغوية » والتزكية العلمية ، ولم ينكروا عليه البصر باللغة

والسلامة من الخطأ ، وأجمعوا ، أو كادوا يجمعون ، على أنه أسبق المحدثين بعد الجاهليين والمخضرمين فى مقام الاستشهاد باللفظ المحرر والأسلوب الجزل والنسج القويم ، ولو كان له بينهم وقار كوقار أبى الطيب أو أبى العلاء — لما خلصت له هذه الشهادة بغير بخس وانتقاص : فقد تكفلت لهم ببخسه وانتقاصه سمعة سيئة لاتتقاضاهم من عندهم مزيدا عليها ، وربح أبو نواس من هذه « المزية » منزلة الأستاذين المتفقهين فى اللغة والأدب ، فأخذ من أهل الوقار كما أخذ من أهل المجون ، ونجا من الاهمال حيث استحق الاهمال بميزان الخلق والدين

***

ولا يزال بعد كل هذا مدد آخر من امداد الشهرة النواسية غير الشخصية النموذجية وغير شهادة العلماء الاجلاء والرواة الثقات ..

ذلك المدد الآخر هو الفاكهة المحرمة ، أو الفاكهة المحببة ، على العهد بين كثير من الناس أن يحبوا كل ممنوع ويلهجوا بكل محظور

فقد كانت الفاكهة المحرمة بضاعة أبى نواس سواء حرمتها شريعة الأخلاق أو حرمتها شريعة الأديان ، وكانت الزندقة والشذوذ بعض مايبيع فى سوق الفسوق .. وشأن الفاكهة المحرمة أن يسأل عنها سرا من لا يسأل عنها علانية ، وأن يقاربها من يألفها ويتجسس عليها من يجهلها وينكرها ، وأنها من بضائع السوق السوداء كما نقول فى العصر الأخير ، فهى من بضائع المساومة والمغالاة

وفى عصرنا هذا نظير لأبى نواس فى الآداب الغربية سيأتى الكلام على المشابهة بينه وبين أبى نواس فى بعض الفصول التالية ، لأنها مشابهة بمقاييس الأدب والخلق والمزاج والدراسات النفسية ، وأهم من ذلك فيما نحن بصدده أنها مشابهة فى أسباب الشهرة بالفاكهة المحرمة وما يصح أن يسمى بالزندقة الاجتماعية

فالشاعر الايرلندى الحديث « أوسكار وايلد » أشبه « الشخصيات النموذجية » فى الأدب الغربى بأبى نواس ، ومهما يكن من قيمة أوسكار

وايلد الفنية فشهرته أكبر من قيمته بكثير ، ولم يعرف فى القرن التاسع عشر أديب استهجنت سيرته كما استهجنت سيرة « أوسكار وايلد » ولا أديب شاعت كتبه من أجل ذلك كما شاعت كتب هذا الاديب المحـروم المجدود ، وقد ترجم الى كل لغة أوربية وكتب عنه النقاد فى كل بلد وتضاعفت الكتابة عنه بعد شيوع التحليل النفسى والمباحث العلمية فى مسائل الجنس والأخلاق ، وانما أصابه هذا النصيب فى سوق الفاكهـة المحرمة التى اتجر فيها من قبل أبو نواس

***

وكل سبب من أسباب هذه الشهرة هو فى الواقع غطاء على حقيقة أبى نواس فوق غطاء ، فهى تخفيه ولا تبديه ، ومن عمل الدراسة النفسـية والدراسة التاريخية ان تبرزا تلك الحقيقة من وراء تلك الأغطية ، وهذا ما سنبدؤه فى الفصل التالى بالكلام على سريرته النفسية : وهى السريرة النرجسية ..

النرجسية

كان أبو نواس اذن « شخصية نموذجية »

ولكنها ليست هي الشخصية التى شاع بها ذكره بين الأميين وأشباه الأميين ، وبين طائفة من خاصة المطلعين على الأدب الفصيح ، وهى الشخصية التى تقوم على الحيلة والجواب السريع والقدرة على الخلاص القريب من المآزق والمحرجات

فما هى اذن حقيقة الشخصية النواسية التى أشاعت ذكره فى أيام حياته وقبل أن تتحول بها الشهرة من دلالة الى دلالة ؟

أيسر مايقال فى كلمة واحدة أنه « اباحى »

وقد كان حقا اباحيا غاليا فى الاباحة ، اذا كان المقصود بالاباحة انه كان يستحل المحرمات ويخالف الدين والعرف والطبيعة

ولكن الاباحى قد يخفى رذائله وموبقاته ، وقد يدارى الناس ويتسم بينهم بسمة الصلاح والتقوى ، ولعل الأكثرين من الاباحيين فى عصر أبى نواس خاصة كانوا على هذه السنة ، لأنه كان باتفاق واصفيه عصر شكوك واختلاط ونفاق ..

وأيسر ما يقال بعد ذلك أنه « اباحى متهتك » يظهر أمره ولا يتكلف لاخفائه ..

وذلك كذلك وصف صحيح . فمن قال عن أبى نواس أنه « اباحى متهتك » فقد وصفه بما كان عليه . لأنه كان يقارف المنكرات ويعلنها ولا يحفل بمداراتها ، وهذا يكفى للصدق فى وصفه على حقيقته ، ولكنه لا يغنى شيئا اذا كان المقام مقام دراسة نفسية . اذ المرء قد يستبيح الرذائل

ويتهتك فى البطالة ويتمادى فى تهتكه غاية التمادى لعلتين متناقضتين ترجع كل منهما الى خلال نفسية بعيدة من خلال الأخرى فى بواطنها وظواهرها ..

فقد يتهتك المرء لأنه هين على نفسه يعلم أنه هين على الناس ، مسلم بحقارته ، شاعر بقلة الجدوى من التستر والمداراة . وأنه يهبط من المهانة الى حضيضها ، فلا ينفعه أن يحتجب ولا يضره أن يتكشف ويتبذل ، ومثله فى هذا مثل الوضيع الساقط الذى لا يبالى أن يخرج للناس فى مباذله اذ ليس له زى غير المباذل ، ولسان حاله كلما أحاطت به نظرات الاحتقار قول القائل « أنا الغريق فما خوفى من البلل » .. بل لعل النظرات لا تحفل به وتتخطاه لهوان شأنه فلا تقف عنده محتقرة أو غير محتقرة ..

هذه حالة من حالات التهتك أو المجون ، وهو كلمة واحدة فى اللغة العربية تعبر عن الاباحة المتهتكة

أما الحالة الاخرى فهى نقيض هذه الحالة فى باطنها وظاهرها ، لأن صاحبها يتحدى بها الناس عامدا أن يسخر منهم ويكشف رياءهم ، وقد يهون عليه شأن الرياء والصراحة ، فلا يعلن رذائله كراهة للرياء وحبا للصراحة . بل يعلنها لأنه يريد أن « يقرر شخصيته » ويشعر الناس بوجوده ويستخف بما يسترونه ويعلنونه ، فلا هو مكترث لهم متسترين ولاهو مكترث لهم معلنين

حالتان نقيضتان : حالة من ينسى « شخصيته » ولا يراها أهلا للذكر مشهورا أو غير مشهور ، وحالة من يقرر « شخصيته » ويتعمد الجهر بالمخالفة لأن الجهر هو سبيله الى هذا التقرير

فأية الحالتين هى حالة أبى نواس ؟

ليست هى الحالة الأولى على التحقيق ، لأن ماروى عنه وماروى من كلامه يعربان عن رغبة فى التهتك والمجاهرة به ولا يقفان عند حد الجرأة وقلة التكلف للمداراة

ولا نستقصي هنا كلامه فى هذه الأغراض ، فان لهذا الاستقصاء مواضعه عند نقده وتحليله . ولكننا نجتزىء بأبيات قليلة فى جملة أغراضه تشير بغير عناء الى هذا المعنى

فهو الذى يقول فى الجهر بمعاقرة الخمر بيته المشهور :

ألا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر
ولا تسقنى سرا اذا أمكن الجهر

وهو الذى يقول فى العشق :

الحمد لله أنى على حداثة سنى
فقت المحبين طرا ببعض ما شاع عنى

وهو الذى يقول فى مقارفة اللذات عامة :

أطيب اللذات ماكا ن جهارا بافتضاح

وهو الذى سمى السمعة السيئة جاها يحتفظ به ولا يفرط فيه حين نصح اه أبو العتاهية بالتوبة فقال ساخرا منه :

أترانى يا عتاهى تاركا تلك الملاهى
أترانى مفسدا بالنسك بين المرد جاهى

ومهما يكن من تبذله فلم تكن مسألة التبذل عنده علما بهوانه ورضاء بهذا الهوان ويأسا من دفعه بالصيانة والمداراة . اذ كان معروفا عنه أنه كان يتعمد أن يلقى ذوى الوجاهة والرئاسة بالتيه والكبرياء ، وكان يذكر ذلك فى شعره فيقول فى غير موضع :

لقد زادنى تيها على الناس اننى
أرانى أغناهم وان كنت ذا فقر

وانما كانت مسألة التبذل عنده مسألة ظهور متعمد واستخفافا برأى الناس لأنه يريد أن يلقى فى روعهم أنهم أهون لديه من أن يتستر لهم وأن ينزل عن لذة من لذاته لمرضاتهم ، وأنهم من هوانهم عليه يتحداهم ويطلب مذمتهم ويؤثرها على ثنائهم

والواقع أن الاغاظة والظهور هما بيت القصيد ، وأن صاحب هذا المزاج

قد يهمه أن يغيظ جمهرة الناس بالمخالفة وان كانت مخالفة الى التقوى والصلاح ، لأن « الظهور » واثارة الشعور هما الهوى الغالب عليه

ولو كانت الاباحية النواسية مقصورة على ماشتهر به أبو نواس من ادمان السكر وايثار الذكران على الأناث لما فسرتها ولافسرت شيئا منها هذه الظاهرة النفسية الواضحة : ظاهرة التحدى بالاباحية المتهتكة . فان صاحب الاباحية المقصورة على ادمان السكر وايثار الذكران على الاناث قد يخجل منها ويسترها ويجتهد اجتهاده للخلاص منها ، وقد ينتهى به الأمر الى التهتك الذى وصفناه فى الحالة الأولى وهى حالة المهانة والاستكانة اليها ..

وانما تفسر آفات أبى نواس جميعا ظاهرة نفسية أخرى هى «النرجسية» التى جعلناها عنوانا لهذا الفصل ، وفيها تفسير لآفته الكبرى وتفسير للآفات الصغرى التى تتفرع على جوانبها

هذه « النرجسية » شذوذ دقيق يؤدى الى ضروب شتى من الشذوذ فى غرائز الجنس وبواعث الأخلاق ، ويلتبس الأمر من أجل هذا بين النرجسية وتلك الضروب المختلفة من الشذوذات الجنسية ، وهى مخالفة لها فى دخيلتها ، مناقضة لبعضها فى ميولها ونزعاتها ، فقد تميل بصاحبها الى العلاقة الطبيعية بين الذكر والأنثى أو تميل به الى علاقة شاذة بين شخصين من جنس واحد ، كما كان يحدث أحيانا من أبى نواس فى غزله بالمذكر تارة وغزله بالمؤنث تارة أخرى، وفى الجمع أحيانا بين ما يزعمه عشقا لأكثر من فتاة واحدة وما يزعمه عشقا لأكثر من فتى واحد ، ولا أصل للعشقين فى نهاية المطاف غير النرجسية فى قرارها العميق

ما هي النرجسية

وقبل أن نشرح هذه النرجسية كما يفهمها المحللون النفسيون نذكر نشأة اللفظ والاصطلاح ، لأنها ذات صلة قوية بالمعانى التى أوحت الى

المحللين النفسيين أن يطلقوا الكلمة على مدلولها بين الآفات الجنسية على الخصوص ..

كان اليونانيون الأقدمون يطلقون اسم نرجس على فتى من فتيان الأساطير بارع الحسن ساحر الشمائل ، يفتن من يراه ويشقى بجماله وتيهه قلوب العذارى الخفرات فلا يلتفت اليهن ولا يستجيب لضراعتهن ، ولم يزل كذلك حتى ضجت السماء بدعاء عاشقاته وصلواتهن الى الأرباب أن يصرفوهن عنه أو يصرفوه عنهن ، واستجابت « نمسسى » ربة القصاص والجزاء الى هذا الدعاء فقضت عليه أن يهيم بحب نفسه ويلقى منها الشقاء الذى تلقاه منه عاشقاته . قال رواة الأساطير : « فما هو الا أن ذهب يشرب من ينبوع صاف حتى لمح بصورته فى مائه ، فوقف عندها يعجب من جمالها وأذهلته الفتنة عن شأنه فلم يبرح مكانه مطرقا الى الماء ليتملى تلك الصورة ويرتوى من النظر اليها ، فلا يزيده النظر الا لهفة وشوقا ولا تزيده اللهفة الا هزالا وذبولا حتى فنى . وذهبت عرائس الماء تطلب رفاته فلم تجد فى مكانه غير نرجسة مطرقة ترنو الى الماء ولا ترفع بصرها الى السماء ، فالنرجس أبدا مطرق مفتوح العين لايشبع من النظر الى خياله على حوافى الجداول والغدران »

وتروى الأسطورة على رواية أخرى ، فيقول الرواة أنه لما لمح طلعته فى الماء حسب أنها عروس الينبوع فألقى بنفسه فيه يحاول أن يمسكها فغرق ولم يعثر الباحثون عنه على جثمانه ، ولكنهم وجدوا فى الينبوع نرجسة على مثاله فغرسوها على حافته ، وكانت أبا للزهر الذى يعرف باسمه ويتطبع فى عشقه لصورته بطباع ابيه

ومن غلوهم فى عشق « نرجس » لنفسه يزعمون أن حملة الأرواح فى نهر الموت الذى يفصل بين الدنيا والآخرة عجبوا له حين رأوه مطرقا الى النهر ولم يزل منهم العجب حتى نظروا حيث ينظر وعلموا أنه برح الدنيا ولم يبرح مفتونا بخياله كما كان وهو بقيد الحياة

وللقصة علاقة بقصة أخرى عن عروس من عرائس الأساطير تسمى

« الصدى » Echo وترتبط قصتها بقصة نرجس لأنها كانت تهواه

قالوا : ان هيرا زوجة زيوس أبى الآلهة والأرباب خرجت كعادتها تتجسس على خليلات زوجها وتتعقب الحور اللائى يسعدن بقربه من ورائها ، فلما كانت فى بعض الطريق لقيتها عروس الصدى فشغلتها عن سعيها بثرثرتها وفضولها وحلاوة أحاديثها التى تحكى بها مناجاة ضميرها ، فلما غابت عنها نظرت حولها فاذا بالحور والعرائس الالهات قد تغفلنها وهى مشغولة مع عروس الصدى ، فغضبت على تلك العروس الثرثارة وقضت عليها أن تعيى بابتداء الكلام فلا تقدر على النطق الا ترديدا لما يلقى اليها

ثم هامت عروس الصدى بنرجس وهو على دأبه من الهيام بنفسه ، وأبلاها الحب لأنها عجزت عن مفاتحته بغرامها ، وكادت تيأس لولا أنها ظفرت به يوما ينادى أحد رفاقه ، ويصيح به من بعيد : الا أحد فى هذا المكان .. ؟!

فسنحت لها الفرصة وأجابته قائلة فى شوق وحنين : أحد فى هذا المكان ..

قال : هلم

قالت : هلم ..

فأعرض محنقا وهو يقول : « لا . لا . لست أعنى هذا . سأموت ولا يكون لك سلطان على »

فلما مضى فى سبيله غير ملتفت اليها عافت نفسها ولاذت بالكهوف والمغاور فلا يحسها السامع بعد ذلك الا فى كهف أو مغارة ، ومن هنا كانت علاقة الصدى بمن يحب نفسه ويروقه أن يستمع الى كلامه معادا اليه ..

ويرى الكاتب بلوتارك أن كلمة نرجس مأخوذة من كلمة نارس أونارك الاغريقية بمعنى الخدر والغيبوبة ، ومنها كلمة ناركوسس Narcosis التى تطلق على النبات المخدر المذهب للحس . ولم يكن النرجس من هذا النبات

ولكنهم أطلقوا عليه اسمه كأنه قد تعاطى المخدر وبدا لمن يراه كالساهم المسبوت ..

وكل هذه الأقاويل عن النرجس والصدى والخدر والسبات لاحقة بما تنطوى عليه آفة « النرجسية » من الغرائز أو من الميول والأحاسيس ، فهى آفة متصلة بالغيبوبة والنشوة والهيام وحب المصاب بها لملامحه وكلامه ولهذا وقع عليها اختيار المحللين النفسيين ، فلم يجدوا اصطلاحا أوفى منها لأعراض تلك الظاهرة النفسية ، مع عراقة الاصطلاح فى اللغة اليونانية التى يختارونها لابتداع الأسماء الجديدة فى العلوم كما فعلوا بأسماء السيارات الفلكية أو العناصر والعقاقير التى تكشف حديثا ، وأوفقها عندهم ما اشتهر فى الأساطير

وأول من أدخل هذا المصطلح فى الطب النفسى الدكتور هافلوك اليس Havelock Elis رائد المباحث الجنسية المشهور ثم توسع الأطباء النفسيون فى دراسة هذه الآفة وتتبعوا أعراضها ولوازمها واستقصوا ماهو من لوازمها الأولية وماهو من لوازمها الثانوية أو التبعية ، فأصبحت بعد هذه الدراسات قسما قائما بنفسه من شذوذات الغريزة الجنسية واشتملت على آفات متعددة تنطوى تحت عنوان واحد هو عنوان النرجسية

الاشتهاء الذاتي والتوثين الذاتي

وتعنينا هنا شعابها التى تتصل بدراسة أبى نواس وموضوعات عشقه وغزله ، وأهمها شعبتان : تسمى احداهما الاشتهاء الذاتى Auto-erotism وتسمى الأخرى التوثين الذاتى Auto-Fetishism وبينهما فرق دقيق ولكنه غير حاسم لأن أعراض كل منهما قد تنساب الى الأخرى فى مسارب النفس الخفية ودخائل الغريزة المكنونة . وما أكثر المسارب والدخائل فى هذه الشئون ..

فالاشتهاء الذاتى يغلب على الحالات الجسدية التى تقترن باختلال وظائف الجنس فى صاحبها ، ويبلغ من اختلال هذه الوظائف أن المصاب به

يمنى اذا أطال النظر الى بدنه عاريا فى المرآة وما اليها ، وانه يشتهى بدنه كأنه بدن انسان غريب عنه ، ولكنها شهوة يبالغ فيها المريض ، لأن الاعجاب بالابدان الغريبة لا يستغرق شعور المرء كما يستغرق الاشـــتهاء الذاتى صاحبه ويغريه على الدوام بتأمل جسده ومعاودة النظر اليه ، ويحـــدث أحيانا ألا يكون النظر استحسانا محضاً ، بل أسفا لبعض النقص واجتهادا فى تحسينه والمغالطة فيه

والتوثين الذاتى يغلب على الحالات العاطفية والفكرية ، فيتخذ المصاب به من نفسه وثنا يعبده ويعزه ويدلله ، ويشوب هذا التوثين حب كحب المرء لمعشوقه ، فهو لا يخلو من اختلال وظائف الجسد ولكنه لا يبلغ بها مبلغ الحالة الأولى

وتلازم الاشتهاء الذاتى والتوثين الذاتى معا لوازم متفاوتة فى درجة الالتصاق بالآفة وتوابعها

فمن أبرزها وأقواها لازمة التلبيس او التشخيص Identification ومنهـــا لازمة العرض Exhibitionism ولازمة الارتداد Regression

لازمة التلبيس والتشخيص

فلازمة التلبيس والتشخيص لاغنى عنها فى هذا الضرب من الشـــذوذ الجنسى وهو عشق الانسان لذاته من الناحية الشهوانية ، فالشاذ فى حب جنسه أو حب الجنس الآخر يجد طلبته ويقضى مأربه . أما الذى يشتهى بدنه فليس فى وسعه أن يقضى مأربه منه بغير الاحتيـــال لذلك بالتلبيس والتشخيص ، فهو يلبس شخصيته شخصاً آخر يتوهم أنه هو ذاته أو يحل محل ذاته ، وكما يفعل جالد عميرة حين يضع أمامه صورة أو يتخيل فى ذهنه عشيقة يتوهم أنه يواقعها يحدث للمصاب بالاشتهاء الذاتى أنه يختار شخصا آخر يحله محل نفسه فى أوصافه البدنية أو الخيألية ، ويتعلق به وهو فى الواقع متعلق بذاته

ولازمة العرض تشمل الاظهار بجميع درجاته ، فاذا أمعن فى الجسدية

والشواغل الحسية شوهد المصاب به وهو يكشف عورته ويعرض أعضاءه ويتعرى من ثيابه أو يلبس الثياب التى تشبه العرى ولا تستر ماوراءها

ولكن الأكثر الأعم فى لازمة العرض أنها لاتمعن هذا الامعان الا فى حالة الجنون وما يقاربه ، وأنها تتحول الى الاظهار ولفت الانظار على أساليب لا تحصى ، وقد ينتهى بها التناقض أحيانا الى اعلان التقوى والظهور بين الناس بآثار التعذيب والتمريغ وسمات العبادة واذلال النفس بتشويه الجسد وتلويثه ..

ومن لم ينته التناقض به هذا المنتهى يشاهد عارضا نفسه بالأزياء الغريبة والألوان الصارخة ، ماضيا فى كل عمل من أعماله العامة على سنة الاشتهار بالمخالفة ، على حد القول الشائع : « خالف تعرف ! »

أما الارتداد فهو يعترى الشواذ على أطوار منوعة ، وانما يعترى النرجسيين من تلبيس ذواتهم بغيرهم ، أو خلع ذواتهم على شخص آخر يلتمسون المشابهة بينهم وبينه ، ولكنهم لايظفرون فى كل حين بشخص تام الشبه بهم فى كل صفة وصبغة . فاذا اتفق لأحدهم أنه رأى شخصا يشبهه فى الملامح والقوام ويخالفه فى القوة فالذى يحدث فى هذه الحالة أنه ينتحل صفة القوة لنفسه كأنه ارتدها اليه من الشخص الذى تلبس بملامح ذاته، وتتفاوت درجات الارتداد بتفاوت المصاب فى درجات المرض فمن المصابين من ينتحل صفة ليست له ولكنها قابلة للادعاء كالقوة والمهارة والمهابة ، ومنهم من ينتحل صفة ليست له ولكنها لا تقبل الادعاء كالطول واللون الأبيض أو الأحمر ، فيكون قصيرا ويروض نفسه على اعتقاد الطول أو أسمر ويروض نفسه على ادعاء البياض والشقرة ، بل قد يدعى الوصفين المتناقضين اذا تناول بالتلبيس والتشخيص مثالين مختلفين

وهذه الحالة عرضة للاعاجيب فى أوهامها وأخيلتها ، فقد تفضى بصاحبها الى مجاراة الطبيعة والشذوذ فى وقت واحد فيخلع ذاته علىامرأة مشتهاة ، فهو من هنا طبيعى فى حبه للجنس الآخر ، ثم يتشبه بالنساء لأنه أعاد اليه بالارتداد خصلة من خصال تلك المرأة لاتوجد فى الرجال ، فهو من

هنا شاذ عن السواء يحس احساس المرأة نحو الرجل الذى تعشقه وتتصباه ..

***

هذه اللوازم تنطبق على أبى نواس فى خلائقه الأولية وخلائقه التبعية وتفسر جميع أحواله حيث لا يفسرها ضرب آخر من ضروب الشذوذ فى المسائل الجنسية ..

فالشذوذ الذى يميل بصاحبه الى عشق أبناء جنسه والعزوف عن الجنس الآخر آفة لا تنطبق على أبى نواس ، لأنه يغازل الجوارى كما يغازل الغلمان ، وكلامه كثير فى استحسان الفتاة لأنها كالغلام واستحسان الغلام لأنه كالفتاة

فهو يقول فى جارية :

غلام والا فالغلام شبيهها
وريحان دنيا لذة للمعانق

ويقول فى غلام :

من كف ذى غنج حلو شمائله
كأنه عند رأى العين عذراء

ويقول فى أخت وأخ :

يديرهما دعجاء(١) رود وادعج
أخ وأخته فى القوم واسمهما اسم
يقال له معن فأما نكسته
لتدعو أخته يوما فمنكوسه نعم

والشذوذ بمعنى حب الانسان لجنسه Homosexuality لايفسر هذه الحالة بل يزيدها ابهاما عند البحث عن أسباب النزعة ومواضع الزيغ فيها ، وانما تفسرها النرجسية وما طبع عليه المصابون بها من اختلاف الهوى حسب اختلاف التلبيس والتشخيص . فاذا اشتهى ذاته ولبسها بواحدة من الجنس الآخر ظهر أنه مستقيم على سواء الطبيعة ، وهو فى الحقيقة

---

(١) دعجاء : أي ذات دعج وهو شدة سواد العين مع سعتها .

شاذ على الحالتين ، لأن العلة هى الاشتهاء الداتى ولازمة التلبيس والتشخيص ..

وقد كان هذا التلبيس يبدو فى غزل أبى نواس صراحا مكشوفا حين يختار لهواه غلاما الثغ كأبى نواس ، وان كانت لثغة هذا بالراء ولثغة ذاك بالسين ، فيقول :

وا بأبى الثغ لاججته فقال فى غنج واخناث
لما رأى منى خلافى له : كم لقى الناث من الناث
نازعته صهباء كرخية قد حلبت من كرم حراث

أو يختار غلاما لا يحسن النطق بالراء تكسيرا لها كما يقول :

يكسر الراء وتكسيرها يدعو مع السقم الى الحتف

أو يختار « ظبيا » يعجبه منه مايصنعه فوه بالراء :

ياذوب قلبى من ظبى كلفت به
ما تصنع الراء فى فيه اذا نطقا

وتعجبه البحة التى كانت احدى خواصه الصوتية ، فلا ينساها وهو يقول فى وصف غلام :

وبه غنة الصبا تعتليها بحة الاحتلام للتشريف

وكان هذا التلبيس يبدو كذلك مكشوفا على نحو آخر حين يقول فى جارية تتشبه بالكتاب :

مؤزرة مؤنثة بها ألم ، وبى ألم
تجرر ذيل مئزرها وفارس أذنها قلم

ويذكر مثال الحسن فى الجنسين اذا تكلم عن حسناء كما يقول فيمن عرضوها عليه ليتزوجها :

ولو أنها فى الحسن كانت كيوسف
وبلقيس أو كانت كخط مثال
وقالت : تزوجنى على مهر درهم
لقلت اغربى عنى فمهرك غال

ومما أشار اليه فى مجونه ، ولا حاجة الى ايراده ، انه كان يخاطب معشوقيه من الغلمان فيقول لهم انه كان معشوقا مثلهم ويحكى لهم كيف يتشبهون به مع عاشقيه ، وفى نسيبه بالنساء تدليل لنفسه يومىء الى أنوثة كامنة فى طبعه كما يقول لاحداهن :

لا تفجعى أمى بواحـدها   لن تخلفى مثـلى على أمى

وفيه استغاثة تحكى استغاثة المرأة بأخواتها :

تجمعـــوا علمونى   ياأخـــوتى كيف آتى
يا ويلتـــا أى شيء   بين الحشا واللهـــات(١)

فهو فى طبيعة النرجسية يسهل عليه أن يلبس ذاته لكلا الجنسين ، وأن يكون شاذا فى حالة ومساوقا للفطرة فى حالة ، وما كان على الفطـرة فى الحالتين ! ..

ومما هو خليق بأن يتأنى عنده الدارسون للنرجسية ولوازمهـا أن « جنانا » كانت أحب معشوقاته اليه وأنها كما جاء فى كتاب ابن منظـور عن أخبار أبى نواس كانت تحب النساء وتميل اليهن ، فربما كان هـذا الكلف الخاص بهذه الفتاة لأن لازمة التشخيص والتلبيس تتحقق بها على نحو لا يتحقق بغيرها ، اذ كانت لها السمات النفسية والبدنية التى تتراءى فيها ميول الجنسين ..

وخليق بالدارسين كذلك أن يلتفتوا الى سر هيامه بالجارية « حسن » واستيحائه من اسمها معنى التوحيد بينه وبينها كما قال متغزلا بها متشفعا لديها بهذه الحرمة :

ان لى حـرمة فلو رعيت لى   لا جـوار ولا أقول قـرابة
غير أنى سمى وجهك لم أحر   مه فى اللفظ والهجا والكتابة
فاذا ما دعيت غـير مـكنى   لم أقصر حفظا له فى الاجابة
فاكتبى وانظرى الى شبه الا   حرف ثم اجمعيهما فى الحسابة

فليس أقرب فى مسارب الشعور الجنسى من الانتقال بتداعى الخواطر بين هذا التشبيه والتقريب وبين عادة التشخيص والتلبيس

---

(١) اللهاة : اللحمة المشرفة على الحلق من أعلى الفم .

فهو فى طبيعة النرجسية يسهل عليه كما قدمنا أن يلبس ذاته لـكلا الجنسين وأن يكون شاذا فى حالة ومساوقا للفطرة فى حالة ، وما كان على الفطرة فى الحالتين

لازمة العرض

وتنطبق عليه لازمة العرض كما تنطبق عليه لازمة التلبيس والتشخيص ولعل لازمة العرض أظهر فيه ، لأنها من شأنها أن تتلمس وسائل الاظهار

فلم ينظم شعرا فى الخمريات أو الغزل أو المجون الا تبين منه أن الجهر بالمحرمات أدنى الى هواه من المتعة بالمحرمات

وان قالوا حرام . قل حرام ولكن اللذاذة فى الحـــرام

وتكبر المتعة فى حسه وفى وصفه بمقدار المخالفة لا بمقدار المتعـة والتذاذها فلا يتساوى شراء الخمر والفسوق بمال حلال وشراؤهما بمال حرام ..

واركب الآثـــام حتى يبعث الله الأنامـــا
فلـــكم نلنـــا بدينـــا ر قســـرناه غـــلاما
وشربنـــا يومنـــا ذا ك بيـــاقيه مـــداما
لانصرف فى حـــرام أبدا الا حـــراما

أو كما قال ، فيمـــا نسب اليه ، ان الخمـــر لا تشرب الا بثمن خنزير مسروق من زانية ... وكأنما نعت نفسه وهو ينعت محبوبه الذى يقول فيه :

كطـــالب مثـــلا قيـــ ل خالف الناس تذكـــر
ان كـــبر النـــاس غنى وان تغنـــوا يكبر

ومن اللغو أن يبحث الباحث جدا عن مذهب أبى نواس فى الزندقة ، فليس له فى الزندقة مذهب غير « العرض والاظهار » ... وقد روى عنـه أنه انصرف من بعض المواخير سكران فمر بمسجد قد حضرت فيه الصلاة فدخل فقام فى الصف الأول ، فقرأ الامام . « قل يا أيها الكافرون » قال

أبو نواس : لبيك ! فلما قضيت الصلاة لببوه(١) وساقوه للحساب ... فأى مذهب من مذاهب الزندقة يسول لصاحبه هذا المجون . انما هى آفة العبث بالمخالفة ولا شىء سواها يغريه بهذا السخف الذميم

ومن اللغو كذلك أن يقال كما قال بعض المستشرقين أنه كان يكره الاشارة الى الطلول فى مطالع القصائد ولعا منه بالتجديد ونفورا من القديم ..

فما كان ينعى على الشعراء بكاء الطلول الا لينعى من وراء ذلك معيشة البادية على أهلها أجمعين ، وبهذه النزعة كان يكثر من التعريض بالعرب العدنانيين والفخر بالعرب القحطانيين ولم يكن له نسب ثابت فى هؤلاء ولا هؤلاء ،وقدكان من شعراء عصره من لهم نسب ثابت فى اليمن أو نسب ثابت فى الحجاز فلم يجعلوا هذا النسب هجيراهم(٢) كما جعله أبو نواس وانما أغراه بالخبط فى هذا المعرض الشائك انه كان مسعر النار فى عصره ، وكانت النفوس تستثار به حيث لا تستثار بغيره . فقد طاح النزاع بين القبائل بالدولة الاموية وطاح هذا النزاع بالخليفة الأمين فى دولة العباسيين ، وخيفت العصبيات يومئذ أشد ما تخاف فى حقبة من الحقب ، ومن هنا كان أمر الخلفاء له بذكر الطلول كما قال :

دعانى الى وصف الطلول مسلط   لقد ضقت ذرعا أن أجوز له أمرا

ولم يكن هذا الأمر تأييدا منهم لمذهب من مذاهب الأدب على سواه ، ولكنه كان اتقاء للشغب وابعادا لباب الخصومات والعصبيات ، ولو لم تكن المسألة مسألة عرض واظهار عند صاحبنا لما عناه هنا رأى الأقدمين ولا رأى المحدثين ، فقد كان ينحو فى الطرد والغزل والمدح والهجاء منحى الشعر القديم ويلهج بمحاكاته على نمط لم يؤثر عن أحد من نظرائه ومعاصريه ..

ومن تغلغل هذه اللازمة فى خليقته ــ لازمة العرض والاظهار والتحدى بالمخالفة ــ انه جعل الصلاح تهديدا لابليس فى قصيدته التى يقول منها :

لما جفانى الحبيب وامتنعت   عنى الرسالات منه والخبر

---

(١) لببوه :أخذوا بتلابيبه وهي ما عند الصدر من النوب· (٢) هجيراهم: دأبهم وديدنهم ·

واشتد شـــوقى فكاد يقتلنى ذكر حبيبى ، والحلم والفـــكر
دعـوت ابليس ثم قلت لـــه فى خـلوة والدموع تنحـــدر .
أما ترى كيف قـــد بليت وقـد أقـــرح جفنى البـكاء والسهر
ان أنت لم تلـق لى المـــودة فى قلـــب حبيبى وأنت مقتـــدر
لا قلت شـعرا ولا سـمعت غنا ولا جرى فى مفاصـلى السـكر
ولا أزال القـــرآن أدرســه أروح فى درســه وابتـــكر
وألزم الصـوم والصـــلاة ولا أزال دهـرى بالخير أأتمـــر
فمـــا مضت بعـد ذاك ثالثـة حتى أتانى الحبيب يعتـــــذر

الى آخر القصيدة :

قال رزين الكاتب عن سبب نظمه لهذه القصيدة : « اجتمعنـا يوما وأبو نواس وعلى بن الخليل فى سوق الكرخ ، وكنا نجتمع وتتناشـد الأشعار وتتذاكر الأخبار وتتحدث بها ، فقال أبو نواس : أدبر من كان فى نفسى وكان أسرع الخلق الى طاعتى ، فما أدرى ما أحتال له ؟ فقال على ابن الخليل يمازجه : يا أبا على ! سل شيخك وأستاذك يعطفه عليك . فقال أبو نواس : من تعنى ؟ فقال : من أنت فى طاعته ليلك ونهارك ، يعنى ابليس ! فان لم يقض لك هذه الحاجة فما ينبغى لك أن تسأله مسألة ولا أن تقر عينه بمعصيه فقال هو أسد لرأيه من أن يخل بى أو يخذلنى .. وانقضى مجلسنا ذلك . فلما كان بعد أيام اجتمعنا فى ذلك الموضـع وأخذنا فى أحاديثنا ، فضحك أبو نواس .. فقلنا له : ما أضحكك ؟ قال : ذكرت فول على بن الخليل يومئذ : سل شيخك يعطفه عنك .. حينئذ قد سألته يا أبا الحسن فقضى الحاجة ، وما مضت والله ثالثة حتى أتانى من غير أن أبعث اليه ومن غير أن أستزيره ، فعاتبنى واسترضانى ، وكان الغضب منى والتجنى . وأحسب الشيخ ــ يعنى ابليس ــ كان يتسمع علينا فى وقت كلامنا » ..

هذه هى القصة كما رواها رزين الكاتب لا يعنينا صحت روايته أو لم تصح ، فان القصيدة لأبى نواس لا تروى لأحد غيره ، ولولا دخيلة طبع

مطوية على آفتها ولوازمها لقد كان اقتراح على بن الخليل خليقا أن يوحى الى أبى نواس أن يتوجه بالطلب الى ابليس على غير ذلك الأسلوب ، ولكنه جرى على دأبه فصنع مع ابليس ما يصنعه مع الناس ، فهو يتحدى الناس بالمعصية والفسوق ويتحدى ابليس بالصلاح والعفاف ، وهى اذن خلة واحدة ذات صبغتين !

وتتمثل هذه الشهوة « النرجسية » شهوة المخالفة والمغايظة فى قصيدة أخرى صور فيها ابليس بصورة المتوسل اليه بغواياته ليختار منها مايحلو له وهو يأباها غواية بعد غواية ولا يزيد على أن يقول له « لا » من قبيل المكايدة والمعاندة لا من قبيل الزهد والعفاف

قال :

نمت الى الصبح وابليس لى فى كل ما يؤثمنى خصم
رأيته فى الجو مستعليا ثم هوى يتبعه نجم
أراد للسمع استراقا فما عتم أن أهبطه الرجم
فقال لى لما هوى مرحبا بتائب توبته وهم
هل لك فى عذراء ممكورة يزينها صدر لها فخم
ووارد جثل (١) على متنها أسود يحكى لونه الكرم
فقلت : لا . قال فتى أمرد يرتج منه كفل فعم
كأنه عذراء فى خدرها ليس فى لبته نظم
فقلت : لا . قال فتى مسمع يحسن منه النقر والنغم
فقلت : لا . قال فتى كل ما شابه ما قلت لك الحزم
ما أنا بالآيس من عودة منك على رغمك ، يا فدم
لست أبا مرة ان لم تعد فغيرذا من فعلك الغشم

ولا يخطىء القارىء فى هذه الابليسيات التى تروى لأبى نواس أو تروى عنه ، ما تحتويه من خبيئة التعلل بالوجاهة والامتياز والظهور بين الأقران ، فمما رواه والبة بن الحباب أستاذ أبى نواس أنه « كان نائما ، وأبو نواس

---

(١) أى شعر غزير

غلامه نائم اذ أتاه آت فى منامه فقال : أتدرى من هذا النائم الى جانبك ؟ قال : لا .. قال هذا أشعر منك وأشعر من الجن والانس أما والله لأفتنن بشعره الثقلين ولأغرن به أهل المشرق والمغرب . قال : فعلمت أنه ابليس فقلت له : فما عندك ؟ قال : عصيت ربى فى سجدة فأهلكنى ، ولو أمرنى أن أسجد لهذا ألف سجدة لسجدت »

ومن رضاء أبى نواس أن يسجد ابليس له ولا يسجد لآدم ، أما والبة فحسبه أن يقول غلامى أبو نواس !

وقد كان من منافع ابليس فى مجون أبى نواس أنه يكفل له وجاهة التمييز بالخمرة التى هو كفؤ لها دون عذاله ، فهو يخصه بهـا ويصرف عذاله عنها ..

دعــوت ابليس ثم قلت له لا تسق هذا الشراب عــذالى

وما كل من يشرب الخمر نظيرا لأبى نواس :

فالخمر قد يشربهـــا معشر ليسوا اذا عدوا بأكفائهـــا

وكثيرا ماتبدو شهوة الوجاهة والظهور فى ولع أبى نواس بشرب الخمر كائنا ما كان نوعها . فهى فضلا عما تخيله لشاربها من العظمة والسلطان ليست مما يرتقى الى « كفاءته » كل شارب وطالب ، وأبو نواس حين يشربها أجدر بشربها من أمم وآحاد ، وعلى لسانها يقول :

فاستوحشت وبكت فى الدن قائلة
يا أم ويحك ، أخشى النار واللهبـا
فقلت لا تحـــذريه عنـــدنا أبدا
قالت : ولا الشمس ؟ قلت الحر قدذهبا
قالت : فمن خاطبى هذا ؟ فقلت أنا
قالت فبعلى ؟ قلت المـــاء ان عذبا
قالت : لقــاحى . فقلت الثلج أبرده
قالت فبيتى ؟ فما استحسن الخشبا

قلت القنـــانى والاقداح ولدها
فرعون : قالت لقد هيجت لى طربا
لا تمـــكننى من العربيـــد يشربنى
ولا اللئيم الذى ان شـــمنى قطبـــا
ولا المجوس فان النـــار ربهـــم
ولا اليهود ولا من يعبـــد الصـــلبا
ولا الســـفال الذى لا يستفيق ولا
غر الشباب ولا من يجهـــل الادبـــا
ولا الاراذل الا من يوقـــــرنى
من السقاة ، ولكن أسقنى العـــربا
يا قهـــوة حرمت الا على رجـــل
أثرى فاتلف فيها المال والنشــــبا

ولم يكن عرضا أنه كان يدعى لها جلالة الشأن على الملوك ، ويعيد هذا المعنى كقوله :

ومدامة تحيـــا الملوك بهـــا جلت مآثرها عن الوصـــف

وكقوله :

ومدامة ســـجد الملوك لهـــا باكرتها والديك قد صـــدحا

أو قوله :

ومدامة سجد الملوك لذكرها جلت عن التصريح بالاسماء

أو كقوله :

صـــــهباء فضلها الملوك على نظرائها لفضـــيلة القـــدم

وكذلك ترديد ذكر التاج عند ذكر سقاتها كما يقول :

تتجت من كـــرم كسرى قبـــل ابان النتـــاج
وغـــزال من بنى الأصـــفر معصـــوب بتـــاج
شخصـــه منى بعيـــد وهو منى كالمنـــاجى

أو كما يقول :

لها تاج مرجان واكليـــل لؤلؤ ترنم كالنشوان بين العواشق
يدور بهـا ظبى غـرير متـوج بتاج من الريحان ملك القراطق(١)

فان الخمر أداة صالحة للتدليل الذى يكمن فى أعماق « النرجسية » وحب أبى نواس لها حب للتدليل الذى لاتستغنى عنه طبيعة الافتتان بالذات أو توثين الذات ، ومن هذا التدليل هذا الترنم بالتاج والملك والامتياز بمقام للشرب لا يكافئه كل مقام ، وما كان هذا الشعور خبيئة عميقة فى نفس الشاعر « النرجسى » وحسب بل كان على طرف لسانه ، وكان أحيانا يلحى(٢) السكر فى سبيل أحلامه ، وهو لا يلتفت الى مغزى ما يقول . حيث قال :

وأصبحت الحى السكر والسكر محسن ألا رب احســـان على ثقيـل
كفى حـــزنا أن الجـواد مقـتر عليه ، ولا معروف عند بخيـل
سـأبغى الغنى أما جليس خليفـة يقـوم سـواء أو مخيف سبيل
بكل فتى لا يســـتطار جنـانه اذا نوه الزحفـان باسم قتيـل
لنحمى مـــال الله من كل فاجـــر أخى بطنـــة للطيبـات أكـول

فهاهنا حلم مستقل عن حلم الخمر ولكنه لا ينفك عن لازمة « النرجسى » المدلل لنفسه ، ويكاد ينسى صاحبه ــ وهو من الساخرين ــ انه عرضة للسخرية التى لا سخرية بعدها حين يتخيله القارىء نديما لخليفة لا يقبل منادمته بغير شرط بل يشترط فيه « السواء » .. ثم يشرئب الى عزة أكبر من هذه العزة فيزين له الحلم أنه قاطع سبيل مخيف ليجمع الغنائم وينفق خمسها فى سبيل الله ، ويحرمه على الولاة ذوى البطنة الذين يأكلون الطيبات .. ولا يغلط فيقول : ويشربون المحرمات .. فمثل هذا الغلط من أبى نواس غير معقول حتى فى الأحلام ؟

ونحسب أن الفارق قد اتضح من هذه الأمثـال بين أنواع التفكير والاباحة ، ولاسيما اباحة « الشخصية العاتية » واباحة « الشخصـية النرجسية » ..

فالعاتى الذى يستبيح المحرمات يبطل التحريم والتحليل ولا يعرفهمـا

(١) القراطق : جمع قرطق وهو القباء بفتح القاف : ثوب طويل يلبس فوق القميص ويتمنطق عليه . (٢) يلحى : لحى الرجل صاحبه : لامه وسبه وعابه . والله فلانا قبحه .

كما قال أبو الطيب فى وصف الأسد :

فى وحدة الرهبـــان الا أنه لا يعرف التحريم والتحليلا

ويود لو فرض على الناس حرامه وحلاله شريعة يأخذهم بها وينزلهـ منزلة الشريعة التى درجوا عليها . أما الشخصية النرجسية فلا يلوح من عملها وقولها أنها تريد ابطال المحرمات بل يلوح من كل أعمالها وأقوالها أنها على نقيض ذلك تريد أن تستبقى شيئا محرما لتستبيحه وأمرا ملزما لتنعم بعصيانه ، وشأنها شأن الطفل المدلل الذى يعطى هواه ويقيس هواه ودلاله بمقياس التجنى والحران ، والولع بما يمتنع والاعراض عما يبذل ويسهل مناله ، أو يستباح

والتدليل هنا هو قوام توثين النفس والشعور بهذا التوثين من الآخرين وغاية الهوى هنا فى الطفل المدلل أنه يكلف أهله مالا يوجد ويأبى ماهو موجود وميسور ..

وتلك هى الاباحية النرجسية التى تقترن بتوثين النفس وتدليلها ، ولا نموذج لها فى الأدب العربى أوفى لعوارضها ولوازمها من أبى نواس

لازمة الارتداد

أما « الارتداد » ، وهو اللازمة الثالثة التى ذكرناها من لوازم النرجسية فهو الذى يعرف أحيانا باسم الصفات الثانوية وليس من طبيعته أن يظهر قبل المراهقة ، وربما تأخر الى مابعد المراهقة بسنوات الى أن توجـد النوازع الجنسية التى لا تتأتى الاستجابة لها حين يكتفى النرجسى بتوثين نفسه ..

ويسمى الارتداد بالصفات الثانوية لأنه لا يبلغ مبلغ التشخيص والعرض فى ملازمة النرجسية ، ولأنه يأتى مرجوعا فى شخص واحد ، ويأتى لهذا على ثلاث درجات :

أولاها ــ توثين النفس ..

وثانيتها ــ خلع الشخصية على انسان آخر، ومن المتعذر أن يكون هذا

الانسان نسخة مكررة من الشخصية النرجسية كما تهواها ففيها لابد شيء من الاختلاف بالتحسين أو بالتقصير

وثالثة الدرجات — أن تعود الشخصية النرجسية فتستعير الملامح المختلفة وتتلبس بها وتحسبها من ملامحها وصفاتها ، وبخاصة اذا رأت أنها ناقصة فيها ..

ولا حاجة الى استقصاء شواهد « الارتداد » فى شعر أبى نواس ، فكل ما وصف به اكفاء المنادمة والظرف وجعلهم من أقرانه لا يخلو من هذا الارتداد ، وكان قريبا فى تداعى الخواطر — أو تداعى الهواجس — أن يرى أنه يشبه « حسنا » اسما ورسما اذ كان مفتونا بطول قامتها وهو غير طويل :

طويلة خوط المتن عند قياسها ولى بالطويلات المتون ولوع

ويخطر على البال أن أكثر الصفات المرتدة انما كانت من صفات المخلوع[1] محمد الأمين ، ومن حبه اياه أنه كان صديق الخمر وان كان ينهاه عنها لينفى عن سمعته قالة السوء

بل قيل — وما هو بالخاطر البعيد — إن شغفه بالأمين انما كان شغفه عاشق لا شغف تابع بمتبوع ، فما كان أبو نواس بالذى يبقى على ولائه بعد خلع الخليفة تشيعا لرأى أو تعصبا لمذهب ، وتقول طائفة من الرواة أن أبيات الشاعر الدالية التى يقول منها :

أصبحت صبا ولا أقول بمن من خوف من لا يخاف من أحد
إن أنا فكرت فى هواى له أحسست رأسى قد طارعن جسدى

انما نظمها فى الأمين ، وانه كان يشرب معه يوما فنشط الأمين للسباحة فلبس ثياب ملاح ولبس غلامه كوثر مثل لباسه ووقعا فى البركة ونظر أبو نواس الى بدن الأمين فرأى مالم ير مثله ، فلما كان من غد جاء الحسين ابن المنذر مسلما عليه . قال الحسين : فسألته عن خبره مع محمد فقال ويلك ! رأيت الفتنة ، وأنشد هذا الشعر .. فقلت له ويحك اتق الله فى رأسك ، فانه ان بلغه قتلك

---

(١) المخلوع : المتهتك .

ولعل أبا نواس لم يحفظ للامين من ذكراه ما هو أدنى الى طبعه من معاقرته الخمر ومن مجونه وملاحته

أأرفضها والله لم يرفض اسمها   وهذا أمير المؤمنين صديقها

فاذا كانت لازمة « الارتداد النرجسي » بحاجة الى مورد يستعير منه الشاعر ماليس عنده من الزينة الشخصية فليس أحرى من الأمين أن يكون هذا المورد الرفيع ، مع ماتقدم من ولع الشاعر بترديد الزهو بسمات الملوك وزينة التاج والاكليل

***

وخلاصة القول في النرجسية أن أبا نواس كان من الشواذ في تكوينه الجنسي ودوافعه النفسية ، ولكن شذوذه غير الشذوذ الذي اشتهر به وهو ايثاره الذكران على الاناث ، ولابد من التفرقة بين الشذوذين لأن النرجسية تفسر أطوار أبي نواس جميعا والشذوذ الآخر لا يفسرها ، وهذا عدا ضرورة التفرقة بين الشذوذين للكشف عن بواطن السريرة وفهم الأخلاق الخاصة والأخلاق الاجتماعية

فغرام أبي نواس بالجنسين وانحرافه مع بني جنسه فاعلا ومنفعلا أمر لا يفسره ايثار الذكران على الاناث Homosexuality ولكن النرجسية تفسره كل التفسير من جميع نواحيه

والنرجسية تفسر الولع بالمجاهرة الاباحية ولكن الشذوذ الآخر لا يفسرها ، لأنه قلما يغرى صاحبه بالمجاهرة وكثيرا ما يوحي اليه التخفي والاستتار ، واذا تبذل فانما يتبذل لاعتقاده أنه أهون من أن يلفت الأنظار وأهون من أن يبالي الاهانة ، لا لأنه يعمل على لفت الأنظار والاستهانة بالملام ..

وقد تكون التفرقة هامة للعلاج النفسي عدا هذا الاعتبار من جانب النقد والتاريخ . وستكون هامة للعلاج النفسي لا محالة يوم تنكشف خصائص الغدد ومفرزاتها وعلاقتها بالأطوار الجنسية والنفسية ، فقد

يصبح تعديل هذه المفرزات بالعلاج الجسدى ميسورا .كما يصبح ضروريا لتقويم الأبدان والأفكار ..

لازمة لفراس واسكار وايلد

واعتقادنا فى أمثال هذه الدراسات أن المقارنة أفضل وسائل التمييز فيها ، وأن أفضل المقارنات ما كان بين المتباعدين فى البيئة والزمان ، فأن التشابه بين أبناء البيئة الواحدة والزمن الواحد لايميز الأضداد ، ولكننا اذا قارنا بين اثنين تفرقهما البيئة والزمان ثم رأينا علامات التشابه بينهما واضحة فهذا هو الدليل القاطع على فعل العلة التى يشتركان فيها

وقد أسلفنا أن الشاعر العصرى أوسكار وايلد كبير الشبه بأبى نواس فى لوازم النرجسية ، وهما مختلفان بعدها فى كل شىء : فى الزمن والموطن واللغة والدين والطبقة الاجتماعية ، ولكنهما على هذا يتماثلان فى كل لازمة من لوازم النرجسية ، ويختلفان فيكون اختلافهما أدل على وحدة المزاج ..

ففى أوسكار وايلد نلقى الملامح الأنثوية وخصل الشعر المرسلة والصوت الذى تمازجه الرخامة ..

وفيه نلقى حب الظهور ولفت الأنظار وشغل الأذهان ، ولم تكن مصطلحات التحليل النفسى قد شاعت فى أيامه فلم يصفوه بحب العرض Exhibitionism كما كانوا يصفونه به لو عاش بعد زمنه بخمسين سنة ، ولكنهم أطلقوا عليه اصطلاح العرف الذى يقابل اصطلاح التحليل النفسى تمام المقابلة وقالوا إنه نموذج حى للزهو المتبرج Dandyism ومنه جاءت كل بلواه ..

وليس الزهو المتبرج كل ماهنالك ، بل هو الزهو الذى يصدم ويغضب كما قال صديقه اندريه جيد الأديب الفرنسى المعروف فى ذكرياته عنه ، وكان يتكلم بلغة عصره — لغة الثورة الفرنسية وأعقابها — فيقول إن

المستبدين ثلاثة : « مستبد يطغى على الجسد ، ومستبد يطغى على النفس ، ومستبد يطغى عليهما معا . أما الأول فيسمونه الأمير ، وأما الثانى فيسمونه الحبر والكاهن ، وأما الثالث فيسمونه الرأى العام »

وكانت لذته الكبرى أن يتحدى الرأى العام ويثيره ، ويتغنى بفضائل الرذيلة أو الخطيئة ، ويكتب وهو يدافع عن الشاعر الفرنسى بودلير — زميله فى النرجسية — : « ان ما يسمى الخطيئة عنصر جوهرى من عناصر التقدم تأسن الدنيا بغيره أو تشيخ أو تنصل من كل لون ، فهى بما تنطوى عليه من التطلع تزيد تجارب النوع الانسانى ، وهى بتوكيدها المزايا الفردية تنجينا من ارهاق القوالب المطردة »

وقال : « ان الطيبة على المثال الذى تفهمه السوقة سهلة بينة فكل ماتتطلبه مقدار من الذعر ونقص فى الفكر المتخيل ومعيار دارج من معايير كرامة المساتير » ..

أما الخطيئة العظمى عنده فهى البلادة ، وعلامات الحضارة عنده اثنتان : الثقافة والفساد

وذهب الى امريكا وعاد منها ينعى على قوم غاية البطولة فى عرفهم ان يكون الرجل على غرار واشنطون لا يحسن أن يخلق لك كذبة واحدة

وذهب الى بلدة من بلاد افريقيا الشمالية التى يغشاها طلاب الفراغ وخرج منها وهو يقول لأندريه جيد : « غاية مناى أن أكون قد نجحت فى افساد هذه القرية »

وكتب ونظم وتحدث وعمل ليبشر بمذهب واحد يتكرر فى صيغ مختلفة وهو أن الفن والعلم منعزلان وينبغى أن ينعزلا فى مقاييس الاخلاق ..

ومما يستوقف النظر غرام أوسكار وايلد بقصة نرجس فى الأساطير الاغريقية قبل أن يشتق منها النفسيون اصطلاحهم على عادات تلك الآفة الجنسية أو النفسية ، فمن أحاديثه مع اندريه جيد أنه قال له ذات يوم بغير تمهيد : انك تصغى بعينيك . ولهذا أقص عليك القصة التالية :

« لما مات نرجس أصبحت بركته كأسا من الدمع المر بعد أن كانت من الماء الزلال ، وأقبلت عليها الأزهار باكية عسى أن تغنى لها وتغريها . فقلن لها حين رأين هذا ... لا عجب أن تحزنى حزنك على نرجس ، فما كان أجمله وأحلاه ..

« فأجابت البركة : أو كان نرجس جميلا حلوا كما تصفنه !

« قالت الأزهار ومن ذا الذى يعرف جماله ان لم تعرفيه ؟ لقد كان يمر بنا ولا ينظر الينا ، ولكنه كان ينحنى عليك ويدمن النظر اليك . وفى مرآة مائك الجميل كان يستجلى بعينيه جماله هو فى تلك المرآة

وعادت البركة تقول : « ولكننى أحببت نرجسا اذ كان ينحنى على حافتى وينظر الى . لأننى كنت أنظر الى عينيه فأرى جمالى متجليا فى تينك العينين » ..

***

وما كان وايلد الا ناظرا فى أعماق سريرته حين لمح بواطن النرجسية فلم يلمحها فى نرجس وحده ، بل لمحها فى البركة معـــه ، فاذا هى نرجسية متقابلة بمرآتين ..

هذه هى النسخة العصرية من أبى نواس ، وتمامها أن أوسكار وايلد كان يتصل بالجنسين ، وكان متزوجا وله ولدان

وأتم من ذلك فى المشابهة أن أوسكار وايلد لم يكن يدمن الخمر كمــا يدمنها أبو نواس . وهذا على دين التحدى بالاباحية هو المعقول فان تحريم الخمر لم يبلغ فى مجتمع وايلد تلك الشدة التى بلغها فى مجتمــع أبى نواس ، فلا اثارة فى اعلان حبها هنا كالاثارة التى يتعمدها ابو نواس فى اعلان حبها هناك ..

الجنس والنفس

أشرنا قبل ختام الفصل السابق الى فعل الغدد فى التفرقة بين الأمزجة ، والى آثارها المرجوة فى علاج أمراض النفس والجسد مع تقدم العلم بأسرار كل منها على حدة أو على التعاون بينها وبين الغدد الأخرى

وكل ماعرفه العلماء حتى اليوم من الأسرار لا يعدو أن يكون مقدمة وجيزة من كتاب ضخم متعدد الأجزاء والأبواب ، ولكنه على قلته يبدو كالخوارق التى لا تقبل التصديق لولا أنه محسوس مؤيد بالتجربة المتكررة ، وسينجلى من أسراره مع الزمن مايعلم المنكرين المتهجمين كثيرا من الاناة والروية قبل التهجم والانكار .. فان الذين استغربوا أسرار الروح بالأمس فأنكروها لغرابتها ليحارون اليوم بين تلك الغرابة وبين الغرابة التى تحيط بكل غدة من هذه الغدد فى عملها المفرد وعملها المرتبط بغيرها . ان أغرب الغرائب ليدخل فى حكم المألوف اذا قيس الى هذه الغرائب ، وهى كما أسلفنا لما تجاوز مقدمة الكتاب ..

هذه الغدد تعمل معا كالفرقة الموسيقية التى يعطى كل منها اللحن الذى يناسبه ويناسب آلات الفرقة بأجمعها

بل هى فى تجاربها أدق من ذلك وأعجب .. لأن الآلة الموسيقية اذا اختلت فى أداء لحنها لم تصلحه لها آلة أخرى . أما هذه الغدد فكل اختلال فيها تتصدى لاصلاحه غدة أخرى بعينها ، واذا اختلت غدتان فى وقت واحد تعاونت الغدد الأخرى على تعويض عملهما ، وبادرت كل واحدة منها الى أداء مهمة لم تكن تؤديها قبل ذلك ، ولا يقع الاختلاط بين هذه المهام المتقابلة ، أو المتناقضة فى بعض الأحوال ، الا اذا كان

الفساد قد عم البنية جميعها فلا يرجى لها صلاح

والمعروف من عملها حتى اليوم فى توجيه الجنس وتحويل الأحوال النفسية يهول العلماء بما يرونه اليوم وما ينتظرون غدا أن يروه ،ويحسب بعضه من الحقائق المقررة ويحسب بعضه الأكبر من الفروض والتأويلات ، بل من الظنون والتخمينات ، وهذه هى المرحلة الخطرة فى طريق هذا العلم الجديد .. لأنها توجب الحذر والانتباه ، وقد يفوت الأوان اذا توغل الباحثون مندفعين وهم لا يحذرون ولا يتنبهون

لقد مضت القرون الأولى ودراسة « الجنس » مهملة أو مسكوت عنها باتفاق العلماء والجهلاء على السواء ، وقد تواطئوا جميعا على السكوت لأنهم لم يفلتوا بعد من أسر الطوطمية وتحريماتها ولا من وهم المتوهمين أن العلاقة الجنسية دنس معيب أو أنها وصمة مخجلة لمن يتحدث بها ولمن يسمعها ولمن يعنى بها ولو للعلم والعلاج

ثم اندفع العصر الحديث من الحظر الى الثرثرة بالجنس فى الدراسات وغير الدراسات ، وأوشك الخطر من الافراط فى القول أن يضارع الخطر من الافراط فى السكوت ، أو يزيد عليه

وهذه كما أسلفنا مرحلة الحذر والانتباه ، يواجهها الباحث كما يواجهها القارىء والسامع ، وبخاصة حين نذكر أن كثيرا من البحث فى هذه المرحلة ضرب من الظن والتخمين

ووسيلتنا نحن فى الحذر والانتباه ، أن نقسم أقوال الباحثين النفسيين فى مسائل الجنس الى قسمين : ملاحظات ، وتعليلات أو تخريجات

فأما الملاحظات فالكثير منها مقبول مقصور على الوقائع والمشاهدات

وأما التعليلات فالكثير منها تخمين يجوز عليه مايجوز على كل تخمين ، ولا استثناء فى هذا الحكم لمذهب أحد من المتخصصين أوغير المتخصصين فما اتفقت مدارس التحليل النفسى على أساس واحد من أسس البواعث النفسية الكبرى ، فما الظن بغير الأسس من الفروع والتشاعيب ؟

وليس أشهر فى هذه المدارس النفسية وما اليها من مدارس فرويد

Freud وونج Jung وأدلر Adler ورانك Rank وسليفان Sullivan وهورنى Horney وفروم Fromm وبرنزهورن Prinzhorn وهم أقطاب النفسيين فى القارة الأوربية ولا نذكر النفسيين فى انجلترا وأمريكا لأن أقطابهم لا يتوسعون فى علم النفس « السيكلوجى » الى التطبيق وتعليل الأخلاق على مثال المدارس الأوربية ، ولا سيما مدارس أوربا الوسطى ، وأعلى ما ترتفع اليه هذه المدارس عندهم أنها بمثابة المحاولات البوليسية للكشف عن الأمراض بدل الجرائم والجنايات ..

واذا سألنا هذه المدارس عن الدافع الأكبر فى النفس الانسانية فماذا نسمع ؟ أهو الجنس ؟ أهو تغليب الشخصية ؟ أهو الغريزة الاجتماعية ؟ أهو الدوافع الواعية ؟ أهو الدوافع غير الواعية ؟ وهل هى موروثة أو مكسوبة ؟ وهل هى قابلة للتعديل قبل الولادة أو بعد الولادة ؟

ان الجواب عن كل سؤال من هذه الأسئلة خمسة أجوبة أو ستة لا تتفق مدرسة واحدة على أحدهما كل الاتفاق ، فضلا عن الاتفاق عليها بين المدارس المتعددة . وربما ابتدأ الباحث منهم برأى فى تجاربه الأولى ثم عدل عنه الى غيره فى تجربة لاحقة ، ولا يستطيع فى الحالتين أن يقول إنه يقرر « علما » قاطعا باليقين ، منزها عن ظنون التأويل والتخمين ، وربما اتفقوا على الاصطلاح كما تتفق مدرسة فرويد فيما بينها على اصطلاحات أستاذها التى يطلقها على دوافع الوعى الباطن ودوافع النزعة الحيوية ، من قبيل الايد Id واللبيد Libido والذات العليا Super-ego الى أشباه هذه الاصطلاحات المخترعة .. ثم يفسرونها ويشرحون محورها الذى تدور عليه فاذا هم أشتات متفرقة فى التصوير والتعليل ، ينقض أحدهم مايثبته زميله ، وقد ينقضون جميعا ما أثبته الأستاذ عند وضع الاصطلاح أو عند التصرف فيه بعد المراجعة

وأولى الأقطاب النفسيين بالحذر من تعليلاته وتعميماته هو رائدهم الأول سيجموند فرويد . وانما كان الأولى بالمحاذرة لانه الرائد الاول وفيه الى جانب فضائل الرواد كل عيوب الارتياد ، ومنها الاقتحام

فالفضل الذى يشكر عليه فرويد لا نزاع فيه بين مؤيديه ومخالفيه ، فقد دخل بالتحليل النفسى فى دور جديد لم يسبق اليه ، ولكنه وثب منه الى تعليلات وتعميمات لا تستند الى الوقائع والمعلومات ، وقد تبطلهـا وتفندها جميع الوقائع والمعلومات ، كدعواه الأخيرة عن ارادة الموت فى الانسان ، وأنها ارادة كامنة فيه كارادة الحياة

وقد بدأ فرويد عمله بالعلاج الطبى ، ثم عكف على دراسة الأعصـاب وانتقل منها الى دراسة الحالات النفسية وهو فى نحو السادسة والثلاثين ، ثم بنى فلسفته فى مسائل الجنس النفسية على أحوال العلاج أو على حجرة الاستشارة Consulting Room كما يقول ناقدوه

وكان أستاذه فى طب العلاج النفسى الدكتور بروير Breuer الذى نقل هذا الطب من تجارب التنويم المغناطيسى وشعوذاته الى الايحـاء البرىء من الشعوذة ، وكان معوله الأول فى علاجه على قاعدة «التسرية» أو رد الفعل التمثيلى Abreaction وهى تتلخص فى البحث عن الصـدمة العصبية التى أحدثت المرض ثم اعادة تمثيلها للمريض بحيث يشعر بمشأ العلة فى نفسه ، وقد استمد هذا العلاج من الراحة التى يشعر بها الانسان اذا رأى شكواه النفسية ممثلة فى قصة يقرؤها أو ينظر اليها على المسرح ، فأصاب فى الملاحظة ولم يتوسع فى القياس

ولكن فرويد زاد على الصدمة العصبية التى يعرفها المريض أنه بحث عن صدمات الوعى الباطن والصدمات التى لا يعيها أحد ، فكان على بر الأمان وهو يتتبع الأعراض المرضية فى كل مريض على انفراد ، ولكنه لم يلبث أن وثب من حجرة الاستشارة الى العالم بأسره والى النوع الانسانى من أبعد نشأته ، بل الى الكيان الحيوانى ومن ورائه الكيان المادى الذى يخبط فيه فلاسفة ما وراء الطبيعة ولا يحسبونه فى علم التجربة والمشاهدة ولا يستخرجون منه علاج الأبدان والأخلاق

وحسبك حذرا من تعليلاته وتعميماته أنها تجعل الشذوذ أساس الحياة الانسانية ، فكل انسان مصاب بعقدة الأب أو عقدة « أوديب » المكبوتة ،

وكل انسان عرضة من جراء هذه العقدة للقلق فى بيئته النفسية وعلاقاته الخارجية ، وليست العقائد والشعائر والعبادات والفنون الا تعبيرا عن هذا القلق أو دفاعا عن النفس أمام طغيانه فى داخلها وخارجها

وعقدة أوديب هذه ماهى ؟ وفى أى عصر كان الانسان الهمجى براء من كبتها ؟ ..

ان عقدة أوديب Oedipus Complex هى غيرة الابن من أبيه على أمه وتقابلها عند المرأة عقدة الكترا Electra وهى غيرة البنت من أمها على أبيها ، ويقول فرويد أن هذه العقدة ترجع الى أيام قيادة القطيع ثم قيادة العشيرة ثم كفالة العائلة ، وفى هذه الأدوار يوجد ذكر واحد — وهو الأب — مستأثرا بجميع الأناث فى القطيع أو العشيرة أو العائلة ، وتنجم نزعات الانحراف الجنسى بين سائر الذكور ، كما تنجم بينها المؤامرة على قتل الأب تخلصا من احتكاره للاناث ..

هل شوهدت حالة من حالات الجماعات الانسانية كانت سابقة لهذا الكبت المزعوم ؟ هل توجد الآن حالة كهذه بين الجماعات الهمجية التى تقاس عليها الجماعات البدائية فى الأزمنة السحيقة ؟ وان كان هذا التطور معرقا فى القدم فكيف عرفناه ؟ هل وجد بين جماعات الحيوانات مثال لهذه النوازع يتأتى لنا أن نشاهد مايقاس عليه ؟

من المحقق أن كل ماشوهد ويشاهد من أطوار الجماعات الانسانية أو الحيوانية لا يسمح بهذه الوثبة الطويلة العريضة فى التعليل والتعميم

على أن الوثبة الطويلة العريضة لم تقف عند أطوار الانسان الأول أو الحيوان الأعجم ، بل جاوزتها بعيدا جدا الى ماوراءها فاستخرجت من أطوار المادة « غير العضوية » مايسميه فرويد غريزة الموت ويكاد يحصر فيه كل دفعة لا تحتويها الغرائز الجنسية

ففى طوية الانسان — على رأى فرويد — دوافع ضارة به تهيىء له طريق الموت من حيث لا يشعر ولا يريد ، ومرجع هذه الدوافع حنين المادة فى كيانه الى حالتها الأولى قبل الحياة ! ..

هذا ضرب من التعليلات التى تنقض الحس والعلم والمشاهدة ولا يعززها اللفظ فى عبارة فرويد نفسها اذا أراد أن نفهم من اللفظ أصدق معانيه ..

فهل فارقت المادة فى الجسم الحى شيئا من خصائصها « غير العضويه » حتى يقال إنها تحن الى معاودته ، وأن حنينها الى معاودته هو الذى يسمى بغريزة الموت .. هل فارقت قانون الجاذبية ؟ هل فارقت قوانين اللـون والاضاءة ؟ هل فارقت قانونا واحدا من قوانين الطاقة سواء نظـرنا الى الطاقة الحيوية كأنها طاقة مادية أو طاقة روحانية ؟

الواقع أن المادة تحافظ على خصائصها هذه مع قوة الحياة كما تحافظ عليها مع كل قوة ، وينبغى أن يقال اذن أن غريزة الموت تعم الكون كله مادامت للمادة هذه المقاومة أو هذا القصور الذاتى مع كل طاقة . فمن أين جاءت الطاقة التى لا تحتويها المادة ؟ والى أين ننتهى اذا نحن ذهبنا تتخبط فى هذه التعليلات والتعميمات

اننا لا نستطيع فى هذا العصر أن نصف المادة حتى « بالقصور الذاتى » الذى يعزلها عن الطاقة ، ولا نستطيع أن نقول إنها ذات طاقة تريد مالا تريده الحياة ، ولو كان معنى الارادة المقصود أنها تطيع قانونا لافكاك لها من طاعته فلا نستطيع أن نفهم غريزة الموت على أى معنى من معـانى فرويد ومدرسته وكل معنى نفهمه قد يصدق على المـادة التى تحيـط بالجسم الحى والمادة التى تكمن فيه

أقل ما يقال عن هذه التعليلات والتعميمات أنها لم تثبت حتى يسوغ لنا أن نثبت مايقوم عليها ، وغاية ما تنتهى اليه أنها خواطر موحية تومىء الى مواضع البحث والمناقشة ، وتتفرق الى كل مفترق حتى يختار منها الناقد ماهو أحرى بالاتباع

فمن أراد أن ينظر فيها على أمان فلينظر اليها كأنها ضرب من الحدس لايزال يتردد بين الافتراض والاحتمال ، وليأخذ به على حسب اقترابه من المعرفة العلمية فى تجارب الغدد وتطور الوظائف الجنسية

ونسميها المعرفة العلمية عمدا للتمييز بينها وبين العلم المقرر ، اذ لم تبلغ المعرفة بالغدد وتطور الجنس مرتبة العلم المقرر الذي تتفق عليه جميع المذاهب وتتساوى تجاربه فى كل حالة ، وليس من السهل أن يرتقى الى هذه المرتبة فى مدى هذه السنوات القصار ، لأنه متعلق بحياة الحيوان والانسان ولا يسهل ضبط الملاحظات على نمط واحد فى جميع الاحياء

ومن المعرفة العلمية العامة أن الغدد الصماء وثيقة العلاقة بتكوين الجسم وتكوين وظائفه الجنسية على الخصوص ، وهى الغدة النخامية والغدة الصنوبرية فى الدماغ ، والغدتان الدرقيتان والشبيهتان بالدرقيتين فى الرقبة ، والغدتان السعتريتان فى أعلى الصدر ، والغدتان الكظريتان فوق الكليتين والخصيتان فى الرجل والمبيضان فى المرأة

وليس من غرضنا فى هذا السياق أن نتوسع فى شرحها وبسط وظائفها وانما نكتفى بالمعلومات الجديدة عن كل منها فيما يتعلق بالوظائف الجنسية والأطوار العاطفية أو النفسية

فقد كان المنظور قبل هذه الكشوف أن الخصيتين والمبيضين هى الغدد الجنسية دون غيرها فى جسم الرجل والمرأة

فتبين بعد مراقبة الانسان واجراء التجارب الكثيرة على الحيوان أن الغدة النخامية ذات أثر كبير فى تكوين خصائص الحى ومنها خصائص الرجولة والأنوثة

الجنس

فالخصية تفرز الخلايا المنوية والخلايا البينية Interstitial المعروفة باسم خلايا ليدج Leydig وهى التى ترتبط بها صفات الرجل الثانوية ، فيشبه الرجال فى بعض الصفات ويشبه النساء فى صفات أخرى على حسب افراز الخلايا البينية (١) وهى تتلقى التنبيه بافراز من الغدة النخامية وتتوقف سلامتها على سلامة هذه الغدة

(١) كتاب الغدد الصماء Endocrinolog تأليف ورنر Werner

وتبين من تجارب الدكتور ستيناخ Steinach أن وقف الخلايا المنوية يضاعف افراز الخلايا البينية ويجدد الحيوية

ومن تجـارب الأستاذ زوكرمان Zuckerman أستاذ التشريح بجامعة برمنجهام أن الطيور وسائر الحيوانات التى يراد تأخير مواسم الولادة عندها تتغير مواسم الحمل عندها بمقدار ماتتعرض له من النور ، وأن التجارب المتكررة أظهرت أن هذا التأثير يسرى من غددها النخامية الى غددها التناسلية ، وينقطع أثره فى الأحيان التى تستأصل الغدة النخامية منها ..

واذا أفرط عمل الغدة النخامية تضخم الجسم وأصابه المرض الذى يسمى بمرض الافراط النخامى Hyper-pituitarism فتطول العظام وتمتد القامة نحو ثمانى أقدام

وتتعاون الغدة الدرقية والغدة السعترية على انماء الجسم الى سن المراهقة ولكن الغدة الدرقية موكلة بنمو التطور والغدة السعترية موكلة بنمو الحجم والبدانة . فاذا حقنت الشفدع (فرخ الضفدع) بافراز الغدة السعترية كبرت وتضخمت وهى على شكلها ، فاذا حقنت بافراز الغدة الدرقية تطورت وتحولت الى ضفدع وهى على حجمها

ويحدث عند ضمور الغدة الدرقية أو ازالتها مرض التوقف العقلى والبدنى Cretinism فلا يتقدم المصاب به من حالة الطفولة العقلية أو الجسدية ..

ويفهم من هذا ان النمو مرتبط بالغـدد جميعها ولا يرتبط بالغـدد الجنسية أو التناسلية وحدها

ولابد من استمرار الغدة الدرقية فى أداء وظيفتها قبل المراهقة وبعـد البلوغ وتمـام النضج فى الجنسين . أما الغدتان السعترية والصنوبرية فتنموان الى سن المراهقة ، ثم تسلمان الجسم الى عمل الغدة التناسلية التى تبدأ فى تلك السن وظيفتها المولدة

وشوهد فعل الغدة الكظرية فى الصفات الجنسية ، فتبين أن الطفـل

الذى تختل غدته الكظرية قبل الولادة يصاب بحالة شبيهة بحالة الجنس المشكل Pseudo-hermophroditism الذى يتميز فيه الجنسان ببعض الصعوبة ..

أما اذا اعتراه الخلل بعد الولادة فقد تتميز فيه صفات الجنس وتصاحبها سرعة المراهقة ، فتظهر ملامح الذكورة أو الأنوثة فى الخامسة أو السادسة ..

وقد تصاب الغدة بعد سن المراهقة فينبت الشعر على جسم المرأة ويغلظ صوتها وتشتد عضلاتها

وقد بسط بروستر Broster فى كتابه « غلاف الغدة الكظرية » Adrenal Cortex أحوال نحو عشرين فتاة أصبن فى غلاف غدتهن الكظرية فغلظت أصواتهن وتغطت بطونهن بالشعر وأشبه البظر عندهن شكل الذكر الصغير ، ولا يلزم فى جميع هذه الأحوال أن تتغير أطوارهن الانثوية ، وقد يشفى غلاف الغدة ويخف ورمه فتزول هذه الأعراض وتعود الفتاة الى أنوثتها.

ويشاهد على وجه التقريب أن العواطف والأحاسيس ترتبط بأعمال الغدة الكظرية ، وأن أعمال الدماغ ترتبط بالغدة الدرقية وأن تكوين العضل يرتبط بالغدة النخامية

أما الغدة الصنوبرية فعملها مهم جدا ولكنه لم يتميز من عمل الجزء المقارب لها من الدماغ Hypothalmus فلا يتيسر الآن على سبيل اليقين أن يعرف أى هذه الآثار من فعلها وأيها من فعل الدماغ كله

ويذكر للفيلسوف ديكارت على سبيل الاعجاب ببداهته الفلسفية أنه أدرك شأن هذه الغدة قبل ثلاثة قرون ويخطر له أنها مركز القوة الروحية وعزز هذا الخاطر عنده أنه رآها الغدة المفردة دون غيرها بين غدد الجسم كله ، ويعترض عليه المحدثون بانفراد الغدة النخامية ، فيرد عليهم أنصاره مشيرين الى انقسام الغدة النخامية كأنها غدتان .. !

وكل غدة من هذه الغدد الصماء تفرز فى الدم مباشرة مادة خاصة بها يطلق عليها اسم الهرمون من كلمة هرماو Hormao اليونانية بمعنى التنبيه أو التحريض ، وكل هرمون من هذه الهرمونات يؤثر فى الهرمونات الأخرى ويتأثر بها ، ولا ينحصر تأثيره فى مفرزات الغدد الصماء دون غيرها بل يسرى الى الغدد الأخرى للتعاون تارة والمقاومة أو التعويض تارة أخرى وقد لاحظ الأستاذ هوسى Houssay من بونيس ايريس بالأرجنتين انه عند استئصال البنكرياس والغـدة النخاعية معا من جسم الحيوان لاتنشأ من ازالتهما الاصابة بمرض السكر كما تنشأ من ازالة البنكرياس وحده (١) ولوحظ مثل هذا التجاوب بين الغدد التى تفرز هرموناتها فى الدم مباشرة كالصماء أو تفرزها بالواسطة كالغدد الأخرى

ودلت مراقبة التوالد فى الكائنات الحية على أن هذه الغدد تبدأ فى الظهور مع انقسام الجنسين ، ولا تتميز خصائصها كل التمييز فى أنواع الأحياء التى تميزت فيها الذكورة والانوثة

وهنا ينبغى أن نذكر أن الأحياء توالدت قبل أن يكون فيها جنسان متميزان ..

فالاميبا Amœba مثلا ــ وهى حيوان من خليـة واحـدة ــ تتوالد بالانقسام ، فتنشق الخلية شقين ينمو كل منهما حتى يستوفى نموه ثم ينشق مثل هذا الانشقاق ..

ويتم التوالد فى احياء أرقى منها بالنتوء أو الازهار تشبيها له بنتوء الكم من فرع الشجرة فاذا أدرك الحيوان سن الولادة شوهد على ظاهره نتوء يكبر حتى ينفصل ويستقل بكيانه ، ويجرى السؤال على هذا النحو فى الأحياء التى تتعدد خلاياها ومنها بعض ديدان الماء والطحالب

---

(١) الغدد التى فى داخلنا تأليف جون ايلنج
« The Glands Inside Us », by John Ebling.

التوالـد

ويتم التوالد فى أحيـاء أرقى من الطحـالب بالطريقة الجـرثومية Polysporogonia أى بانعزال بعض الخلايا داخل الجسم وتطورها حتى تشابه جرثومتها الاصيلة ، ثم تخرج من جسم الحيوان كالجنين من الرحم ، وتأخذ فى النمو ثم التوالد على هذا المثال ، والحيوانات المرجانية والدودة المتشعبة من هذا القبيل ..

ويلى هذا التوالد الجرثومى توالد متوسط بين هذه الطريقة وطريقة الحيوان ذى الجنسين ، ويسمى البوغية أو الغبارية Sporogonia ويجرى التوالد فيها بانعزال خلية واحدة من الجسم تبدأ بالنمو بعد انعزالها وتتعدد خلاياها وهى فى جسم واحد حتى تشابه أصلها الذى نشأت فيه ، وهذه الطريقة شائعة فى بعض الفصائل من النباتات السفلى

ويلى الطريقة البوغية طريقة تسمى بالتوالد العذرى Parthenogenesis ويكاد يحسبها بعضهم نكسة من طريقة أرقى منها

فتتولد من الحيوان جرثومة قابلة للنمو بغير تلقيح ، وهى نفسها قد تلقح فيختلف النتاج ، كما يحدث فى جراثيم النحل الذى تنمو خلاياه غير الملقحة فتصبح ذكورا وتنمو خلاياه الملقحة فتصبح اناثا ، ولا يبقى النوع بغير هاتين الطريقتين

ومن الأحياء الطفيلية ما يجمع بين الذكورة والأنوثة ، ومنها مايجرى التلاقح فيه بين حيوانين كل منهما لاقح وملقوح ، كالدودة التى تسمى دودة الأرض Earthworm والقوقعة الحلزونية Snail وأعلى من هذه الطبقة قليلا حيوانات تتناوب الذكورة والأنوثة موسـما بعد موسم ، فالمحـار Oyster أنثى ويصبح ذكرا فى موسم تال ، وقد يرتد الى الأنوثة فى موسم يليه ..

والطبقة التى تعلو على هذه الطبقة هى طبقة التوالد من جنسين يستقل كل منهما بوظيفة لايؤديها الجنس الآخر . والمسافة شاسعة جدا بين أدنى

الحيوانات من هذه الطبقة وبين الانسان ، ولكن الانسان مع هذا لايزال محتفظا فى كيانه بأصول التوالد فى طبقات الأحياء ، ويوجد فى شبك المبيض مثلا جزء كخصية الرجل ولا يقال فيه إنه الجزء المقابل للخصية وحسب ، ويصح أن يقال بعبارة أخرى أن كل أنثى تطوى فى لباب المبيض « مشروع » خصية (١) قد ينمو حتى يعمل عمل الخصية فى الذكور ويغير أطوار المرأة فى صفات الجنس الثانوية

ويؤخذ من شواهد متكررة أن مبيض الانثى يفرز الهرمون المذكر المسمى بالاندروجين Androgen كما يفرز الهرمون المؤنث المسمى بالاستروجين Etrogen . ومن التجارب فى الحيوان أن الدجاجة التى يستأصل مبيضها يضمر عرفها ولا تعود الى النمو الطبيعى الا اذا ألقحت بالاندروجين دون الاستروجين ، مما يفيد أن مبيض الدجاجة لا غنى له عن افراز الاندروجين لاستقامة كيانها

ويحتاج الذكر كما هو معلوم الى وقت للنضج واستيفاء كيان الرجولة أطول من الوقت الذى تحتاج اليه المرأة ، فينضج الشاب فى نحو العشرين وتنضج الشابة فى نحو الثانية عشرة فاذا ألقح الحيوان بهرمون المرأة — أى الاستروجين — بكر نضجه والتحمت كراديس جمجمته Epiphyses قبل الأوان ..

والمعلوم أن الذكر فى الحيوانات الفقارية أجسم من الانثى فاذا خصى الذكر والأنثى من صغار الحيوانات فالخصى يعطل نمو الذكر ويعجل نمو الأنثى ، كأنما هرمون الأنثى يعطل النمو فاذا غاب نما الجسم واذا بقى أبطأ نموه . ويجرى العلماء هذه التجربة على نحو آخر . اذ يلقحون ذكور الجرذان واناثها بالاستروجين فيتعطل نمو الذكور والاناث (٢)

كذلك يحدث تضخم البروستاتة فى الشيخوخة لنقص افراز هرمون

---

(١) تقرير نوفاك ولونج عن اورام المبيض وعلاقتها بالتغيرات الجنسية الثانوية
Ovarian Tumours Associated with Secondary Sex Changes by Novak and Long.

(٢) « الغدد التى فى داخلنا » تأليف جون آبلنج
« The Glands Inside Us », by John Ebling.

الذكر ، أى الاندروجين ، وزيادة افراز هرمون الانثى ، أى الاستروجين
ويشاهد على الأغلب أن أثر الاندروجين فى عموم الجسم أقوى من أثره فى جهاز التناسل مباشرة ، فاذا نقص نقصت فى الرجل صفات الذكورة الثانوية وان لم يضعف جهازه التناسلى فتغلب عليه بعض أطوار الانوثة ولا تتعطل قدرته على التوليد

ومن هذه المشاهدات المتكررة يجنح ذوو التجارب الى القول بأن غياب أطوار الرجولة يبرز أطوار الانوثة ولا يحدث عكس ذلك ، أى أن غياب أطوار الانوثة لايعطى الرجل صفات جنسه النفسية أو الجسدية

وأيا كان مقطع الرأى فى هذه التجارب فالثابت من أطوار الصبغيات والناسلات أن أنوثة الجنين مطردة حيث يغيب الصبغى الذى ينفرد الذكر بافرازه ، وانه حيث يوجد هذا الصبغى يكون الجنين ذكرا على الدوام

فمن عجائب الخلقة أن الخلايا المولدة التى تصل الى رحم المرأة تبلغ نحو مائتى مليون خلية . كل خلية منها تحتوى على أربعة وعشرين صبغيا وكلها متشابهة الا بعض صبغيات الذكر ، فان الصبغى الرابع والعشرين منها يشتمل على خلية واحدة ذات جزئين مختلفين ، ولا يأتىهذا الاختلاف الا على النسبة التى يتعادل بها عدد الذكور وعدد الاناث فىالنوع الانسانى بوجه التقريب ..

وأعجب من ذاك أن هذا الصبغى Chromosome يعين جنس المولود ولكنه لا يعين الطبائع الموروثة ، بل يرجع توريث هـذه الطبائع الى الناسلات Genes فتنتقل الى بعض الذرية ولا تنتقل الى بعضها ، لأن الناسلات تتزاوج وتتلاقى ناسلات الأب وناسلات الأم . ويختلف الولدان من ثم فى الذرية الواحدة ولا يندر أن يكون الذكر وارثا لصفات أمه وأن تكون الانثى وارثة لصفات أبيها ، بل لايندر أن تكون الصفات الموروثة منقولة من الأجداد والأسلاف : صفة من الجد الأبوى وصفة من الجد الأموى ، وكلتا الصفتين قد خفيتا فى الأب والأم على السواء .

وكثيرا ما يرث الولد استعدادا تحـول البيئة دون ظهوره ، ولكنه

لايكسب فى البيئة خلقا لم يكن على استعداد له بتكوينه

وقد تقدم أن الصبغيات فى النوع الانسانى أربعة وعشرون أحدها هو الذى يعين الجنس فينمو الجنين ذكرا أو أنثى على حسبه ، ويبقى ثلاثة وعشرون صبغيا تعمل فى تكوين الجنين ، فهذه الحقيقة يبنى عليها بعض العلماء رأيا قويا فى تعليل الوراثة المختلفة ، ويسمون هـذه الصبغيات بالمستقلة أو الذاتية Altosomes تمييزا لها من الصبغى المختص بتعيين جنس المولود ، ولم ينكشف بعد من مراقبة مواليد الانسـان مايكفى للجزم برأى فى علاقة هذه الصبغيات الثلاثة والعشرين بوراثة الأخلاق والمزايا لأن التجارب على الحيوان لا تصلح للقياس عليها

ولكن العلماء يتابعون البحث على هذه الخطوط الواسـعة أملا فى الوصـول الى تعيين عمل الصـبغيات جميعا فى نقل الأخلاق والخلال الموروثة ، وهو بحث عويص محفوف بالمجازفات والصعوبات ، ندرك شيئا من صعوباته كلما أحضرنا فى خلدنا دقة الناسلة التى تعد بمئات الملايين فى افراز الغدة الواحدة ، وتحمل فيها ماظهر وما خفى من خلائق الآباء والأجداد من طرف الأبوة والأمومة الى أجيال لاندرك أولها فى القدم ولا نهايتها فى المستقبل . ومن المجازفة الشديدة أن يتصدى أحد ــ بالغا مابلغ علمه ــ لمحاولة التعديل فى مثل هذه الناسلة الدقيقة حتى يمحو منها خلقا أو يسويه من عوج الى اعتدال

الفوارق بين الجنسين

وبعد فهذه عجالة توخينا الالمام فيهـا بما هو ضرورى من المعارف العلمية من أعمال الغدد وتطور الوظائف الجنسية ، فما هى النتيجة التى تنتهى اليها ؟

انها لاتنتهى بأية حال الى تهوين الفوارق بين الجنسين ولا الى زعم الزاعم أن الانسان مزدوج الجنسين Bisexual مختلط الذكورة والانوثة بطبيعته ، وان الشذوذ الجنسى فيه فطرة عامة تتخذ اطوارها على حسب

العمر من الطفولة الى تمام النمو فى الجنسين ، كما يقول فرويد ومتبعوه .
ان النتيجة التى تنتهى اليها بحوث المختصين بتطور الجنس لا تنتهى الى هذه النتيجة ، بل تنتهى الى نتيجة تناقضها ، وهى ان الفوارق بين الجنسين تتعدد وتتوزع وتتشعب حتى لا يكفى لتعيينها جهاز التناسل وحده ولابد معه من دلائل أخرى تنطوى فيها وظائف الغدد وسائر أطوار البنية ..

واذا كانت هذه الخصائص لا تتوافر جميعا فى بنية واحدة فهذا شأن جميع الخصائص فى كل تركيب من تراكيب الاحياء أو الجماد فلا يوجد انسانان ولا شجرتان ولا حجران على مثال واحد ، ولا يلزم من عموم المادة الكربونية مثلا ان الفحم والماس والسكر أشباه لا فوارق بينها فى جميع المزايا والقيم والاغراض

وللنوع الانسانى ولا شك خصال عامة يشترك فيها الجنسان ولكن التطور الجنسى لم يتقدم هذا التقدم ليتشابه الجنسان فى النهاية وانما تقدم الجنس لتظهر بينهما الفوارق اللازمة ، ويبقى كل منهما بعد ذلك انسانا فيما عدا هذه الفوارق لأنها لاتخرج الذكر من انسانيته ولا تخرج الانثى من انسانيتها ولن يكون النوع الذى ينتميان اليه نوعا واحدا اذا اختلفا فى كل شىء

وقد وجدت حالات من الشذوذ الجنسى لا شأن لها بالخصائص الموروثة ومرجعها كلها الى العوارض الاجتماعية أى العوارض التى تطرأ بعد الولادة ..

فالذين راقبوا الشذوذ الجنسى فى الحيوانات وجدوا انه يعرض للقردة والكلاب وبعض الطيور كالحمام . ولكنه لا يعرض لها الا فى غيبة الاناث وحين يتربى الذكور من هذه الحيوانات فى مكان واحد تنعزل فيه ولا تظل على شذوذها بعد اختلاطها باناثها

والذين راقبوا الشذوذ الجنسى فى القبائل البدائية وجدوا كذلك أنه

يعرض للناشئين وهم منعزلون فى المزارع والغابات ، ثم يتعقبونه بالسخرية والاشمئزاز .. (١)

وهذه هى العوارض التى يتخذها بعضهم شاهدا على النزعة الفطرية فى الشذوذ الجنسى لأن الحيوانات والهمج يباشرونه كأنما كانت استقامة الفطرة وقفا على الحيوان والهمج المتخلفين عن المدنية.

وقد درست فى عواصم المدنية أحوال الشواذ المحترفين فلم يوجد بمعظمهم شذوذ فى تكوين البنية ، ودلت دراستهم وفحصهم على أنهم يحترفون البغاء طمعا فى الكسب ولا ينقادون للغواية بدافع فطرى من النزوة الجنسية ..

وتفعل البواعث النفسية فعلها فى حالات شتى من الشذوذ الجنسى الذى لا يقبل التعليل بغيرها ولا يتأتى خلوه منها ، اذ لا يخفى ان الصلة بين الرجل والمرأة لا تقوم على الوظيفة التناسلية بمفردها ، بل تسبقها فى المجتمعات المتحضرة ومجتمعات البداوة أحيانا أشواق نفسية ومطالب اجتماعية ، فيجوز أن يكون الرجل سليم البنية ولكنه لا يروق المرأة ولا يثير شعورها أو يستولى على عواطفها ، ويجوز انه يشعر بذلك فيحجم عن طلب المرأة هربا من المهانة وألم الخيبة ، ويجوز أن يحس من نفسه ضعفا فيتجنب الصلة التى تخجله أمام شريكته ، ويجوز أن ينفر من امرأة واحدة ذات شأن عنده ، أو ينفر من امرأة واحدة أضرته واحتقرها أو احتقرته فيسحب احتقاره على جميع بنات جنسها ، ويجوز أمثال ذلك كثير من علل الشذوذ الجنسى الذى ينفر صاحبه من المرأة ولا يمكن أن يخلو من البواعث النفسية

فاذا قيل مثلا ان الناشىء الذى نقصت وظائف الرجولة عنده يتشبه بالنساء وينقاد لشهوات الرجال ، أو قيل ان الناشئة التى جارت فيها هرمونات الذكورة على هرمونات الانوثة تتشبه بالرجال وتتعشق بنات جنسها ، فكيف يمكن أن نعلل بعلة الهرمونات حالة الناشىء الذى لا يحب

---

(١) النمو فى غانة الجديدة تأليف مرجريت مين
Growing up in New Guinea by Margaret Maine

المرأة ولا يميل بعاطفته الجنسيه الى غير أبناء جنسه ؟ ان زيادة الهرمونات المذكرة خليقة أن تصرفه الى الافراط فى حب الاناث ، وإن نقصها خليق أن يلحقه بالمتأنثين : أما الرغبة الجنسية التى تقيـد الرجل بأبناء جنسه فليس لها تعليل معقول من قبل الهرمونات ولابد من الرجوع بهـا الى الحالات النفسية والعادات العارضة ، سواء نشأت من ظروف المجتمع أو من البيئة المنزلية فى نطاقها المحدود

وقد أحصى هرشفيلد Hirchfield وستيكل Steckel وستيناخ Steinack وغيرهم حالات كثيرة يعزى النفور فيها من المرأة الى علل نفسية ولا ارتباط لها بفعل الهرمونات وما اليها ..

احدى هذه الحالات حالة فتى كان يحب أمه حب العبادة ثم ماتت فوقع فى صندوقها على رزمة من الأوراق قرأها فوجد انها رسائل غرامية ، وعلم منها أن أمه كانت تخون أباه وتخون عشـاقها وأنهم كانوا يتبذلون فى الكتابة اليهـا عن أفانين الرذيلة التى كانوا يقترفونها معها ويستعيدون ذكراها ..

واحدى هذه الحالات حالة فتى أصابه المرض من امرأة يهواها وغيرها حالة فتى أذلته فتاة وصدمته فى كبريائه فجعل يتمثلها فى كل فرد من بنات جنسها ، وأشباه ذلك حالات تحصى بالمئات

فمن السخف أن يقال ــ اعتمادا على المعرفة العلمية فى مسائل الغدد وتطور الوظيفة التناسلية ــ أن هذه المعارف أثبتت أن الشذوذ الجنسى طور من أطوار العمر كمـا هو مذهب فرويد وشيعته ، أو أن الشذوذ الجنسى جنس ثالث مستقل بين الذكورة والانوثة كما هو مذهب هرشفيلد وطائفة من تلاميذه ، وكل ما يصح بعد هذه المعارف العلمية فى العصر الحديث أن الشذوذ الجنسى قد يرجع الى أصل فى البنية ، وأنه قد يرجع الى علل نفسية أو عوارض اجتماعية ، ويجزم طبيب من أقطاب النفسيين الجنسيين بنفى العلل البيولوجية . ويقصر علل الشذوذ كلها على الصدمات العصبية والعادات المكتسبة . وهذا الطبيب هو ولهلم ستيكل الذى كان

مديرا للكلية الطبية بجامعة فيينا ، وصاحب التواليف المعتمدة فى العلاج النفسى والتحليلات النفسية وأشهرها كتـــاب « الأمراض العصبية فى الشواذ » The Homosexual Neurosis وكتاب « حب الجنس المزدوج » Bisexual Love وهما موضوعان لنفى العلل البيولوجية الموروثة واثبـــات العلل النفسية والعصبية بالأمثلة المستمدة من تجاربه الشخصية

وقد سجلت الاحصاءات التى أشرفت عليها لجان العلماء المسئولين ممن خولوا درس هذه المسائل فى الجامعات والمدارس والمستشفيات والحقول والمعاهد المزدحمة بأفراد الجنسين أو أفراد الجنس الواحد ، فدلت هذه الاحصاءات على أن نسبة الشواذ مدى الحياة لا تزيد على أربعة فى المائة، وأن الحالات التى تعرض بعض الناس للشذوذ الجنسى قد تعرض أمثالهم للاتصال بالحيوان ، وأن الوسائل المصطنعة فى العواصم تشجع الشذوذ ومنها البؤر والمبـــاءات التى يديرها طلاب الكسب ويتردد عليها طـــلاب الاستطلاع ممن تستهويهم تجربة اللهو حيثما اطلعوا منه على لون غريب . ولا نظير لهذه البؤر والمباءات فى القرى الصغيرة فهى لذلك قليلة الشواذ بين أبنائها وبناتها بالنسبة الى العواصم الكبرى (١)

ويتحرج معظم العلماء فى تقرير القـــواعد والاوصاف التى يسوقونها مساق الجزم واليقين فى هذه الأمور فلم يسلم من الملامة أمثال جريجوريو مارانون الاسبانى Gregorio Maranon لأنه سرد فى بحثه العلمى عن تطور الجنس Evolution of Sex أشباها وملامح زعم أنها تلازم الشواذوتميزهم من غيرهم ، وربما شملت هذه الملامة أناسا من أجل الاساتذة الموقرين بين تلاميذهم ومريديهم من طبقة هرشفيلد وستيناخ المتقدم ذكرهما ، أو طبقة العـــلامة الفرنسى أندريه تريدون André Tridon صاحب كتاب التحليل النفسانى والأخلاق لأنه زاد عليهم فعمم الحكم على طائفة كاملة لا تجمع بينها ملامح خاصة بل يجمعها اليتم أو فراق الابوين

(١) السلوك الجنسى عند ذكور الانســـان تأليف الدكتور كنسى وزملائه
Sexual Behaviour in the Human Male, by Kinsey and Others.

فمثل هذه التعميمات ، فى الحق ، تهجم لامسوغ له من العلم ولا من أدبه ، ولسنا نقصد بهذا أن الشواذ مجردون من الملامح والخصائص التى قد تدل عليهم ، ولكننا نقصد أنها قد توجد فيهم وفى غيرهم ، وقد تميز الشواذ حين تقترن بدلالات كثيرة تلصق بهم مجتمعة ولا تميزهم متفرقة وسنضرب المثل على ذلك بهذه المياسم المتعددة حين تجتمع فى شخصية « أبى نواس » ..

وينبغى أن نثوب الى قسطاس مفهوم لا يعتسف التفرقة بين العلامة الجسدية وهى عرض من أعراض الشذوذ الجنسى وبين هذه العلامة بعينها وهى لا تدل على مرض من أمراض النفس ولا تتعدى موضعها من البنية ..

فالنفسانيون متفقون على أن العاهات النفسية انما هى توقف فى النمو أو احتباس له يعوق المصاب أن يستوفى نمو العاطفة أو الفكر أو الحاسة الاجتماعية أو وظائف البنية ، وتقترن بهذه العاهات أحيانا علامة محسوسة أو عادة جسدية ثابتة . الا أن هذه العلامات قد تكون موضعية فلا تدل على نقص مستتر ، كعثرات النطق مثلا ، فانها قد تدل على احتباس القوى الناطقة عند دور الطفولة فيظل الرجل طفلا تلازمه عيوب النطق الناقص الى سن الشيخوخة ، وقد تطرأ بعد تمام النمو فيلثغ الرجل فى الخمسين أو الستين اذا سقطت ثناياه ، ويتمتم أو يرت لسانه اذا اصطدم واختل جهازه الصوتى دون مساس بعاطفته وشعوره

كذلك الطفل اليتيم أو الطفل الذى افترق أبواه وتربى مهملا أو مدللا فى حضانة أم جاهلة لاهية ، فهو عرضة للشذوذ الجنسى اذا كان ضعيف المزاج فى بيئة مغرية ، شبيها بالنساء فى سماته وملامحه ، ولكنه قد يندفع الى السطو والاجرام اذا كان قوى المزاج متغلبا على أقرانه ، وقد يسلم من الشذوذ والاجرام معا وهو ضعيف المزاج مشابه للنساء اذا نشأ فى بيئة بعيدة عن مغريات الرذيلة والجريمة ، أو كانت الرذيلة والجريمة فى بيئته مما ينفر الطفل ويثير سخطه واشمئزازه ..

فالعلامات الجسدية وحدها لاتكفى لتمييز الشواذ والدلالة على عاهات الأخلاق والطباع ، ولابد معها من قرائن عدة تتناول البيئة فى نطاقها المحدود وفى نطاق المجتمع الكبير ، وتأتى دلالتها حتمية قاطعة متى ثبت المرض وتجمعت أعراضه الأخرى .. أما قبل ذلك فهى دلالة ناقصة تسقط من كل تقدير صحيح

***

وسنرى عند تطبيق هذه العلامات على ابى نواس نماذج من الاعراض التى لا تدل على شىء حين تنفرد ولا تنقض دلالتها حين تجتمع .. فان أعراض البنية والتربية البيتية ونشأة المجتمع وأحداث العصر قد اجتمعت فى حالته الخاصة دون سائر الحالات التى وجد فيها شعراء عصره ، فجعلته تلك « الشخصية النموذجية » التى تكاد لا تتكرر فى جيل

شخصية أبى نواس

والآن نستطيع أن تتثبت من سيرة « الحسن بن هانىء » صـــاحب الشخصية النموذجية التى وجدت حقا ولم يخلقها الوهم من تصـــورات السامعين به على حسب اختلاف الأوقات والأحوال

وهـــذه الشخصية النموذجية غـــير شخصية « أبى النواس » .. هى شخصية « نرجسية » باصـــطلاح النفسيين المحـــدثين على أن تفهـــم « النرجسية » فهما يخالف تعليلات « فرويد » وتعميماته .. وهى تلك التعليلات والتعميمات التى لا يقرها أحد من نظرائه وأنداده ، ومنهم أناس ضارعوه فى المنزلة العلمية والشهرة العالمية بعد أن تتلمذوا عليه

فليست النرجسية طورا طبيعيا من أطوار العمر يمر به كل انسان ولكنها آفة نفسية تولد مع صاحبها فى رأى بعض النفسيين وتنشأ من التربية البيتية وعوارض المعيشة الاجتماعية فى رأى آخرين ..

فمن الذين أنكروا تعليل فرويد لهذه الآفة العالم الفرنسى الدكتور رولان دالبيج Dalbieg الذى عقب على مذهب فرويد بمجلدين ضخمين خلاصتهما أن فرويد لا يفرق بين منهج العلاج وفلسفة علم «النفاسيات» وقد تناول دراسة النرجسية خاصة فقال فى لهجة حاسمة : « ولكن هل لدينا ما يسوغ الذهاب الى أبعد من هذا المدى لنقول كما قال فرويد إن النرجسية درجة طبيعية فى التطور الجنسى ؟ اننا لا نتردد فى الاجابة عن هـــذا السؤال بالنفى ، فليس التطـــور الجنسى سلسلة متتابعة من الشـــذوذات وليس النمو الجســـدى كذلك سلسلة متتـــابعة من المسوخات .. » (١)

(١) الجزء الثانى من كتاب دالبيج
Psychoanalytical Method and The Doctrine of Freud.

ومن معارضيه هرشفيلد المؤلف الموسوعى فى النفاسيات الجنسية ، وهو يتناول النرجسية فى الفصل السادس من الجـزء الأول من كتـابه عن النفاسيات الجنسية وهو كذلك ينكر أن النرجسية درجة طبيعية فى التطور الجنسى ويردها الى فعل الغدد واختلاف تركيب البنية

ومنهم الدكتور لوينفلد Lowenfeldt مؤلف كتاب « الجنسيات والأمراض العصبية » وعنده أن النرجسية ليست طورا طبيعيا أو درجة طبيعية ولكنها انحراف يميل الى الشذوذ الجنسى ويجرى أحيانا فى مجرى واحد مع غرام النرجسى بأبناء جنسه

ومنهم الدكتور سادجر Sadger تلميذ فرويد الذى يخالف أستاذه ويوافق الدكتور لوينفلد فى رأيه وتفسيره (١)

ومنهم امام مدرسة مستقلة عن المدارس الاوربية وهو الدكتور وليام مكدوجال ورأيه فى كتابه « اجمال العلل النفسية » أن غرام الطفل بنفسه حالة غير حالة النرجسية (٢)

ومنهم سيدة طبيبة (٣) تطبق العلل النفسية على الخصوص من الوجهة الأنثوية وهى الدكتورة كارين هورنى Horney التى تقرر فى كتابها عن الأساليب الحديثة فى التحليل النفسى أن فرويد لم يفرق بين تعظيم النفس وتمديدها Self-Inflation وبين النرجسية بمعنى عشق النفس والتدله بها من الناحية الجنسية

فالنرجسية التى نتبع أعراضها فى الحسن بن هانىء ليست حالة طبيعية تلاحظ على انداده وفى مثل عمره . ولكنها حالة منحـرفة ولد ببعض أعراضها وجاءته الأعراض الأخرى من البيت والمجتمع والعصر الذى نشأ فيه وعاش فيه سائر حياته ، وهى حالة لا يشابهه فيها أحد من شعراء عصره ولم يخطىء معاشروه الذين أفردوه بها وأحسوا أنه هو دون غيره

(١) يراجع المجلد الثانى من مجموعة الدكتورهافلوك اليس باب النرجسية وفيه الالمام بهـذه الآراء

(٢) Outline of Abnormal Psychology

(٣) New Ways in Psycho-analysis

تلك « الشخصية » النموذجية التى طبعت بطابع واحد لم يتعدد فى زمانه ولعله لم يتعدد على هذا النمط بعد زمانه

ولقد توافقت الدلالات والاعراض على تمييز هذه الشخصيةالنموذجية فاجتمعت فيها دلالات التكوين ودلالات النشأة البيتية ودلالات المجتمع ودلالات العصر بحذافيره حيث عاش بين البصرة والكوفة وبغـــداد أو حيث عاش فترة من عمره فى الديار المصرية

وعلينا أن نقيم الفاصل الواضح بين هذه الدلالات فى سيرة الحسن بن هانىء وبين هذه الدلالات بعينها حين تؤخذ متفرقة وحين تنفرد كل منها بالاستدلال على « شخصية مجهولة »

فالآفة هنا ثابتة والدلالات انما تأتى بعد ذلك لتطبيقها واستخراج أسبابها ومراجعة هذه الاسباب على النشأة والبيئة

فليست الدلالات هنا هى التى تتهم الحسن بن هانىء وتقيم البينة على اتصافه بآفته النفسية ، ولكنها قرائن تنتظر التطبيق والمضاهاة بينها وبين الآفة الموجودة ، فلا حرج من الاستدلال بهـــا وهى متفـــرقة أو من الاستدلال بها وهى مجتمعة

أما الاعتماد على أشباه هذه الدلالات لاثبات آفة غير ثابتة فهذا هو موضع الحرج والاناة ، فان كلا منها قد يؤخذ على حدة فلا يدل على شىء وقد تجتمع معا فيبقى الشك فى حقيقة الارتباط بينها ومقدار التوافق فى جوانب هذا الارتباط وتلاقيها حقا على وجهة واحدة

لهذا يجوز أن يعتمد الباحث على بعض الاعراض فى دلالتها على هذه الشخصية ولا يجوز أن يعتمد عليها فى سائر الشخصيات ، ومرجع ذلك الى ثبوتها مجتمعة ومتفرقة ثبوتا لا خلاف عليه

ونبدأ بدلالات التكوين الجسدى كما جاءت فى أوصاف لم يخالفهـــا أحد من مترجميه ..

قال ابن منظور فى أخبار أبى نواس : « كان حسن الوجه رقيق اللون أبيض حلو الشمائل ناعم الجسم ، وكان فى رأسه سماحة وتسفيط أى كان شعره منسدلا على وجهه وقفاه ــ وكان ألثغ بالراء يجعلها غينا ، وكان نحيفا وفى حلقه بحة لا تفارقه »

وقال من سيرته مع والبة بن الحباب « فرآى بدنا حسنا ، وكان جميل الوجه وحسن البدن ، فأطار عقله »

وقال فى سبب تسميته بأبى نواس : « سئل مرة أخرى فقال : سبب كنيتى أن رجلا من جيرانى بالبصرة دعا اخوانا له فأبطأ عليه واحد منهم فخرج من بابه يطلب من يبعثه اليه ليستحثه على المجىء اليه فوجدنى مع صبيان ألعب معهم وكانت لى ذؤابة(١) فى وسط رأسى فصاح بى : يا حسن امض الى فلان وجئنى به ، فمضيت أعدو لأدعو الرجل وذؤابتى تتحرك فلما جئت بالرجل قال أحسنت يا أبا نواس ، لتحرك ذؤابتى ، فلازمتنى هذه الكنية

وكان يعتز بفراهة(٢) بدنه . قال أبو القشير : « نظمت الشعر وأنا غلام وأبو نواس غلام وكنا جميعا نضرب العود وكنت أحسن وجها من أبى نواس وأبو نواس أطبع منى فتفاخرنا بالشعر وغيره ، ثم قلت له : انى أجمل منك وجها ، فقال بل أنا أحسن منك وجها وأفره .. »

وكان لا ينسى ملاحته وتيهه بها وقد جاوز الشباب كما قال من شعره :

تتيه علينـــا أن رزقت ملاحـــة فمهلا علينـــا بعض تيهك يا بدر
فقـــد طالما كنـــا ملاحا وربمـــا صـــددنا وتهنـــا ثم غيرنا الدهر

وتكاد تتمثل لنا من هذه الملامح صورة نرجسية للحس والعيان قبل النرجسية النفسية التى يدور عليها بحث علماء الامراض النفسية ،فالبياض والرقة والنعومة والملاحة والشـــعر المتهدل أشبه ما تكون بملامح الفتى

---

(١) ذؤابة : ضفيرة الشعر المرسلة . (٢) فراهة : الملاحة في الناس ، والنشاط والخفة في الدواب .

نرجس الذى حنا على الجـدول فاستحال نرجسة واتخذه الاسطوريون اليونان نموذجا للجمال المفتون بمحاسنه

ودلالات التكوين الاخرى تتم هذه الملامح فيما تسمعه الأذن ولا تراه العين ، فاللثغة وبحة الصوت تشيران الى تكوين وسط بين كيان الصبى وكيان الشباب الناضج . وليس هذا الاحتباس فى جهاز الصوت موضعيا لا يرتبط بحالة كامنة فى وظائف البنية لأنه غير مقصور على لثغة اللسان بل شامل للحنجرة كما يبدو من بحة الصوت التى لا تفارقه . ولعلهم لو كانوا فى زمانه يعرفون مراكز الدماغ التى تسيطر على النطق عامة لاضافوا الى ذلك لوازم أخرى مع اللثغة والبحة الحنجرية . ولكن ما ذكروه كاف للدلالة على أن النقص شامل لجهاز النطق كله وما يليه من الغدد التى تسيطر على اعداد البنية للمراهقة وليس بالمقصور على الحنجرة واللسان

ولا يخفى أن جهاز النطق شديد العلاقة بالنمو الجنسى فى الرجال على الخصوص فلا يدرك الرجل سن النضج حتى يغلظ صوته ويعمق ويبرأ لسانه من لكنة الطفولة ولثغات الحروف فاذا عم النقص لسانه وحنجرته كان لذلك علاقة بوظائفه الجنسية مدى الحياة

وتضاف الى لثغة أبى نواس وبحته ظاهرة لها علاقة بالنفسية الجنسية وبالكيان الجسدى المتصل بهذه النفسية

فالضفيرة التى كانت مرسلة من رأسه تنبىء من الوجهة النفسية التى كان أهله يشعرون بها ولا ريب عن صبى شبيه بالبنات ترسل له الضفائر تدليلا ومجاراة لسيماه الغالبة عليه وهذا التدليل من علامات النرجسية التى يرجع فيها الى أثر البيت والتربية

ويظهر أن أبا نواس قد أراد الاحتفاظ بهذه الضفيرة بعد بلوغه سن الرجولة معتزا بغزارة شعره ، فأشفق من السخرية والعبث ولم يسترح الى نبذها مرة واحدة فاستعاض عنها بتسفيط شـعره وبقائه منسدلا على جبهته وقذاله[1] ، وهذا ، الى نعومة الجسم وخلوه من الشـعر ، علامة جنسية لا تهمل مع اضافتها الى غيرها من العلامات المتوافقة

---

(١) قذاله : القذال بالفتح ما بين نقرة القفا الى الاذن ·

فالمعهود فى شعر الرأس أنه من العلامات الجنسية الثانوية وأنه على صلة بهرمونات الذكور والاناث على السواء

ويتعرض الرجل للصلع بعد سن الشباب على الأغلب ، فقلما يصلع الشبان فى ابان القوة الجنسية

ولو وقف الأمر عند هذا لما احتاج الى بحث طويل ، فيكفى أن يقال إن غزارة شعر الرأس مرتبطة بالقوة الجنسية ، ثم يتساقط الشعر مع تقدم السن وتناقص هذه القوة

ولكن المشاهد أيضا أن النساء قليلات الصلع وأنه قلما يصيب الخصيان المجبوبين قبل البلوغ

فبماذا يكون تعليل الصلع مع النظر الى جميع هذه الملاحظات ؟ هل يأتى من ضعف هرمونات الذكورة ؟ ان كانت هذه هى العلة فالأولى أن يصاب به النساء والخصيان

فهل يأتى من قوة تلك الهرمونات ؟ على هذا التقدير ينبغى أن يصلع الشبان ولا يصلع الشيوخ

والتعليل المعقول اذن أنه يأتى من تحول طبيعة هرمونات الذكورة فاذا كانت فى نشأتها قوية غالبة ثم شاخت مع شيخوخة البنية حدث الصلع وان لم تكن من نشأتها قوية غالبة لم يتحول الشعر عن حالته .. واذا بقيت على قوتها بقى شعر الرأس كأنه فى سن الشباب

فأبو نواس اذن بقى على حالة واحدة من صباه الى شيخوخته ، فحكمه فى هذه الحالة حكم النساء والخصيان

واذا أضيف الى هذا خلو جسمه من الشعر واحتباس جهازه الصوتى عند الحالة التى تتوسط بين الصبا والشباب كانت هذه العلامة أيضا خليقة أن يلتفت اليها ولا تهمل فى سياق الفحص عن الجنسيات والنفسيات

ولا حاجة الى الاسهاب فى الكلام عن شعوره بمحاسن بدنه شعورا نرجسيا كالعشق الذى يعنيه الاطباء النفسانيون فان مفاخرته لابى القشير

---

(١) المجبوب : المقطوع .

واعتزازه بفراهة بدنه وذكرى التيه الذى كان ينعم به فى صباه وأشباه ذلك من نوادره وقصائد مجونه ـ تغنى عن الاسهاب فى هذا الباب

البيـت

وعنوان النرجسية التى اندست اليه من تربية البيت هى تلك الضفيرة التى ظلت مرسلة من رأسه الى السن التى يلعب فيها مع الصبيان ، سواء كانت هى سبب تسميته بأبى نواس أو كان لهذه التسمية سبب غيرها

فهو طفل مدلل فى كفالة أمه ، وربما دللته لانه وحيدها كما قال فى شبابه :

لا تفجعنْ أمى بواحدها   لن تخلفى مثلى على أمى

فقد عاشت حتى شاخت وقالت فيها الجارية « عنان » تهجوه وتهجوها :

عليك أمك (خـذها)   فانهـــا كنـــدبيرة

والكندبيرة بالفارسية هى العجوز الخرفة

ولا يمنع أنه واحدها ماجاء فى ترجمته من سيرة أخيه وأخته فربما كانا أخويه لأبيه : اذ كانت أمه قد تطلقت من أبيه وهو غلام صغير ولبث بعد ذلك فى كفالة أمه ، ولا يبعد أن يكون أبوه قد تزوج قبلها أو بعدها

ومن أسباب التدليل التى أحصاها أطباء الامراض النفسية أن تشتهى الام أن ترزق بنتا لغربتها أو وحدتها واقترابها من الشيخوخة التى تحتاج فيها الى عناية المرأة ، فترزق ولدا ذكرا بدلا من البنت التى تتمناها ، ويحدث فى هذه الحالة أنها تربى الولد تربية البنات تسلية لها ومغالطة لأمنيتها ، وليست هذه الأمنية بعيدة من خاطر أمه لأنها كانت امرأة من قرى الاهواز تزوج بها هانىء وهو فى جيش الامويين ثم نقلها الى البصرة بعد قيام الدولة العباسية . فجاءتها وحيدة منقطعة عن أهلها ، وجعلت تعيش فى موطنها الجديد بارضاع الاطفال وصنع الجوارب وبيع الملابس لنساء البيوت ..

يقول أندريه تريدون Ir:don فى كتابه « التحليل النفسى والاخلاق » :
« ان المحللين النفسيين متفقون جميعا على تكوين الشذوذ الجنسى

فى صورته المنفعلة . فان الصبى الشاذ المنفعل هو فى جميع الحالات ابن أيم أو زوجة مطلقة فارقت زوجها بالموت أو الهجـر والمقاضاة عقب ولادة الطفل فنما الطفل مضطرا الى التماس قدوة يقتدى بها فوجد هذه القدوة فى أمه وكبر وهو يحاكيها فى الاعراض عن النساء والمبـالاة بالرجال ، وأصبح كالمرأة فى كل اعتبار غير اعتبـار التشريح ، ثم يدرك الرغبـة الجنسية على النحو الذى تدركه المرأة فيتمنى مثلها أن يحرزه رجل كما يحرز النساء » ..

ويجارى النفسيين فى مثل هذا الرأى أستاذ لعلم الامراض النفسية قليل الشطط فى آرائه ، وهو الدكتور جوردون آلبورت Allport أستاذ هذا العلم بجامعة هارفارد ، فيقول فى كتابه عن الشخصة والترجمة النفسية (١) « ان الولد النحيل الذى يعانى جرحا نرجسيا يجد ملاذا له فى أن يصبح عشيرا مدللا PeT لأستاذه »

وقصة أبى نواس مع أستاذه والبة بن الحباب هى تطبيق لهذه الملاحظات من الغلاة والمعتدلين من العلماء النفسيين

ولم يكن التدليل هو كل ما ابتلى به أبو نواس فى صباه من مغامز الآفات الجنسية ، فقد قيل إن أمه كانت تستخدم صناعاتها فى الاتجـار بملابس النساء للجمع بين الغوانى وطلابهن فى بيتها « وكان لها بيت تنادى فيه الغوانى » ولصقت به هذه السمعة الى ما بعد شبابه ، فقال فيه الشاعر ابان بن عبد الحميد اللاحقى :

أبو نواس بن هـانى ... وأمه جلبـان
والنـاس أفطن شىء ... الى دقيق المعـانى

وكانت الجارية عنان تغرى به السفهاء والعيارين (٢) أن يصيحوا به كلمـا رأوه :

أبو نواس اليمـانى ... وأمه جلبـان
والنغـل (٣) أفطن شىء ... الى حروف المعـانى

(١) Personality and Psychological Interpretation, by G. Allport.

(٢) العيارين : العيار : الكثير التطواف والحركة من الرجال .

(٣) النغل : ولد الزانية .

وتريد بالنغل أبا نواس ، وتشير الى امرأة كانت كما قيل تربى أولاد الزنا وتربيهم ، وهى أمه جلبان ! »

أما أبوه « هانىء » فالأرجح أنه من سلالة زنجية تنتمى الى مولى من اليمن وكان أسود شديد السواد قال فيه ابان :

هانىء الجون أبوه زاده الله هوانا

وكان أبو نواس يتعصب لليمانية أحيانا ، ويهجو من أجلهم النزارية كثيرا ، ولكن أصدق الأقوال فى نسبه ما قاله فيه الرقاشى أنه :

واضع نسبته حيث اشتهى فاذا ما رابه ريب رحل

فقد إدعى زمنا أنه من ولد عبيد الله بن زياد بن ظبيان من بنى عامر من تيم اللات الذى ينتهى نسبه الى وائل .. فقيل له : ان الرجل الذى تدعى اليه لا عقب له ، لأنه فلج ومات ولا ولد له . فترك الانتساب اليه وذهب يتنقل بين الانساب اليمانية حيث شاء ، ولم يلبث أن هجا اليمانية فقال :

لأزد عمان بالمهلب نزوة اذا افتخر الأقوام ثم تلين
وبكر ترى أن النبوة أنزلت على مسمع(١) فى الرحم وهوجنين
وقالت تميم لا نرى ان واحدا كأحنفنا حتى الممات يكون

وفى غير هذا الكلام يهجو نزارا فيقول :

واهج نزارا وافر جلدتها واهتك الستر عن مثالبها

وفى هذه القصيدة يقول مفتخرا بقحطان :

فافخر بقطحان غير مكتئب فحاتم الجود من مناقبها
ولا ترى فارسا كفارسها ان زلت الهام عن مناكبها
عمرو وقيس والاشتران وز يد الخيل أسد لدى ملاعبها

وربما تعاجم وتنكر للعرب جميعا كما قال :

تراث أبى ساسان كسرى ولم تكن مواريث ما أبقت تميم ولا بكر

وربما فضل منادمة العجم على منادمة العرب حيث يقول ·

---

(١) مسمع ابو قبيلة فى ربيعة

نادمتهم ارتاض فى آدابهـــم فالفرس عدوى سكرهم محسوم
ولفارس الاحرار أنفس أنفس وفخارهم فى عترة[١] معـــدوم

ويستكثر فى قصيدة أخرى منادمة الشراب على الأمم جميعا غير العرب فيقول :

لا تمكننى من العربيـــد يشربنى ولا اللئيم الذى ان شمنى قطبا
ولا المجوس فان النـــــار ربهم ولا اليهود ولا من يعبد الصلبا
ولا السفال الذى لا يستفيق ولا غر الشباب ولا من يجهل الادبا
ولا الأراذل الا من يوقـــــــرنى من السقاة ، ولكن أسقنى العربا

وهكذا راح أبو نواس يفخر اليوم بمـــا ازدراه أمس ويمدح لهذه المناسبة أو تلك ماذمه لمناسبة أخرى ، ويلهج بهذه المفاخرات والمهاترات فى مطالع القصائد لينعى على العرب طلولهم وبواديهم ويؤثر عليها التغنى بالمدامة والمنادمة ، أو يلهج بها فى المدائح ليقدح فى كل نسب غير نسب الممدوح ، أو فى الاهاجى ليعيب من يقصده بالهجاء ، وكانت هذه النغمة هجيراه لا يكاد يسكت عنها فى باب من أبواب المعصية

ومن اللغو أن تؤخذ هذه المهاترات مأخذ الدعاوى الجدية التى يحققها مدعيها ويعول على تحقيقها ، فان المرء لا يلهج هذا اللهج بشىء الا أن يكون له مساس بهوى دفين يغريه باللغط فيه على غير مشيئته ، والمساس بالهوى الدفين هو الذى يسميه العصريون بالعقدة النفسية ، وها هنا عقدة نفسية على متناول اليد لاتعنت السائل عنها من قريب ولا تلجئه الى سر غير مكشوف

فليس فى نفس النرجسى عقـــد آلم لها من تلك التى تمسها فى فتنتها بذاتها وتمسها من ثم فى شـــهوة العـــرض والمعارضة ، ونزوة التحـــدى والاستثارة ..

ومشكلة النسب تمس أبا نواس فى هذه وتلك أى أنها تمس فتنته بذاته ، وشهوة العرض والمعارضة فى دخيلة طبعه

فليس أثقل على الفتى المغمور النسب فى أبويه معا من المفاخرات التى

---

(١) عترة : سلالة ٠

تتعالى بها الاصوات من حوله ولا يسمع له بينها صوت

وقد كان العصر عصر المفاخرة بين الشعوبيين والعرب أجمعين وكان عصر المفاخرة بين القحطانيين والعدنانيين وكان عصر المناجزة والمعاجزة بين العلويين والعباسيين ، ولم يكن أبو نواس قصير اللسان منزويا عن الناس فيسكت وينزوى ، ولم يكن صغيرا عند نفسه فيعترف عليها بالصغر والمهانة ..

ونخالها العقدة الوحيدة التى شقيت بها نفس أبى نواس ، لأن العقد النفسية لا تعيش فى دخائل الاباحيين ، اذ كانت العقدة بطبيعتها كبتا وكتمانا وكانت الاباحية مجاهرة بما يكبته الناس ويكتمونه ، ولكن مشكلة السب شىء لا يباح به ولا يكشف الا على المغالطة والتحدى ، وهذا ما فعله أبو نواس ..

ولاشك أن هذه العقدة كانت من أقوى بواعث أبى نواس على معاقرة الخمر وألفة مجالسها ، واختيار المجالس التى لا تسمع فيها المفاخرة بالأنساب أو تسمع فيها ولكنها تعاب على سنة الظرفاء والأحباب

راح الشقى على الربوع يهيم
والراح فى راحى ، فرحت أهيم

بمزمزمين[1] عدوا بسدفة ليلة[2]
والليل ملتبس الظلام بهيم[3]

نادمتهم أرتاض فى آدابهم
فالفرس عدوى سكرهم محسوم

ولفارس الاحرار أنفس أنفس
وفخارهم فى عترة معدوم

واذا أنادم عصبة عربية
بدرت الى ذكر الفخار تميم

وعدت الى قيس وعدت قوسها ..
سبيت تميم وجمعهم مهزوم

---

(١) بمزمزمين : زمزم الرعد : صات ولم يعل صوته • (٢) سدفة : ظلمة • (٣) بهيم : أسود •

وبنو الأعاجم لا أحـــاذر منهم
شرا فمنطـــق شربهم مذمـــوم
لا يبذخون على النديم اذا انتشوا
ولهم اذا العرب اعتـــدت تسـليم
وجميعهـــم لى حين أقعـد بينهم
بتـــذلل وتهيب موســـــوم

نعم وهذه هى العقدة . فهو يختار المنادمة حيث لا مضايقة بالمفاخر والدعاوى وحيث يرى من حوله التوقير والتسليم . ولكنه لا يسكت سكوت الواجم الذليل فى غير هذا المجال بل يصول صولته هاجيا أو مباهيا ليتحدى ويستثير

ولاشك أن ولاءه لقوم من اليمانية غير مكذوب من أساسه ولكنه ولاء العبد الذى تدرج من الفخر بسادته الى ادعاء ولائهم ثم ادعاء نسبهم . وليس من المصادفات أن يكون اسم أبيه هانئا كاسم بطل اليمن المشهور فى حرب ذى قار « هانىء بن مسعود بن بكر » وقائد قومه فى النصر على جيش الأكاسرة . وليس من المصادفات أن يسمى أخوه أبا معاذ على اسم معاذ بن جبل الخزرجى الذى كان من اليمن وكان رسول النبى عليه السلام الى اليمن وقاضيها المختار لهدايتها وارشادها ، وكذلك جاءت نسبة أبى نواس الى الذوين[1] من اليمانيين . بل كذلك اختار أبو نواس جميع أساتذته او اكثرهم من اليمانية وأصحاب الولاء فيهم منهم يعقوب الحضرمى وخلف الأحمر وأبو زيد الانصارى وغيرهم من المنتمين الى اليمن بالنسب او بالولاء

فليس هذا مما يتفق بالمصادفة ولكن صاحبنا علم أصل ولائه ونشأ وترعرع وهو يستمع الى الأسماء اليمانية فى بيته فأراد أن يغرس عقيدته فى الانتساب الى اليمانية بالايحاء الى نفسه والتماس القربى لكل لاهج مثله بهذه النسبة ومكنها بهجو النزارية عسى أن يقبله القحطانيون فيتمكن بينهم بالاغضاء والسكوت ان لم يتمكن بينهم بلحمة الاباء والأجداد

---

(١) الذوين : جمع (ذو) التي تسبق بعض الاسماء .

وأصل هذه الدعوى كلها على ماهو ظاهر أن هانئا اباه كان من زنج اليمن أقرب بلاد العرب الى جلب الزنج من طريق البحر الأحمر ، ولم يختلط قومه طويلا بغير الزنج . فلم يفارق أباه سواد لونه وتزوجت أخته من عبد يسمى فرجا القصار وولد الشاعر أبيض بلون أمه ، فاختار من النسب أقربه اليه ، ولم يختره الا وهو مستعد للانكار وتشديد النكير على من ينكر دعواه ، وبخاصة حين يجد من طبعه نزوعا الى تشديد النكير للتحدى والاثارة

والحسن الصغير — على هذا — قد أخذ من بيته النرجسية مونودا وأخذها وهو يتربى مدللا مهملا محروما من الرعاية الرشيدة ، وأخذها من مشاهداته فيه وهو يخطو الى الفهم ويظن أنه يتعقل مايراه فلبس أعون على الاباحية النرجسية من مشاهدة الرياء حاسرا بغير قناع فى حظائر الأسرار بين جدران البيت .. وخليق بمن طبع على العبث بالعرف الا يكترث له وهو يرى المساتير من الرجال والنساء أمام الناس بادين على حقيقتهم فى خلوات الفجور والمجون !

بيئة المجتمع

وتطبق البلية من بيئة المجتمع حيث فتح الحسن عينيه على الدنيا العريضة من مدينة البصرة فرضة[1] العالم كله فى ذلك الزمان

فالبصرة فى موقعها مثابة الطلاب والقصاد من كل بلد وكل نحلة وفيها محاسن الحضارة ومساوئها مبذولة لمن يشاء كيف شاء . وكل مصيب فيها بغية من العلم والأدب أو من الكسب والتجارة ، أو من اللهو والغواية أو من الثورة على الدولة والولاء لها فى ذلك الزمن المريج[2] المتقلب بين شتى الدعوات والغارات

وكان من حولها قطاع الطريق يتربصون بالقوافل برا وبحرا وينهبون من استطاعوا نهبه ثم ينفقون السلب على الخمر والقمار والدعارة فى الحاضرة الكبيرة ، ولا يزالون بين اجتراء واختفاء كلما آنسوا غرة

---

(١) فرضة : محط السفن من البحر • (٢) مريج : المختلط الملتبس من الامور •

من الدولة وشاغلا من حفاظ الأمن أو أحسوا لها شدة ويقظة فى تعقب الشطار[1] والخراب ..

وكان عصر أبى نواس أول عهد البصرة بالبوهيمية المتشردة المتهجمة كما عرفتها مدن الحضارة حيث شاعت وفشت فى أدوار القلاقل والمنازعات

ففى ذلك العصر أخذ « البوهيميون » يفدون من مواطنهم الاسيوية الهندية ويزحفون الى الغرب جموعا أو متفرقين ، بل جيوشا أو عصابات على حسب المكان الذى يغيرون عليه

هؤلاء هم الزط أو النوَر أو البوهيميون بعاداتهم وأساليبهم التى تجمع بين غارات الفتك والعدوان وغارات الغواية والمتاع المبذول ، حيث يستطاع الفتك أو يروج المتاع ..

والزط هم البوهيميون بعينهم ، والكلمة مصحفة من كلمة أوربية قديمة أطلقت عليهم لأن الأوربيين حسبوهم قادمين من الديار المصرية ، فسموهم تارة « جيتو » وتارة « جبسى » Gipsy من كلمة جبسيانو أو اجبسيانو التى يطلقونها على المصريين ، الى أن قامت طائفة منهم فى أواسط أوربا فغلب عليهم اسم البلد الذى أقاموا فيه واشتهروا من ثم بالبوهيميين ..

والبوهيمية بعاداتها وأساليبها معروفة لم تتغير منذ تسربت الى بلاد الحضارة ، وأولها التشرد وقلة المبالاة بالعرف الاجتماعى ، وطلب الكسب اختطافا أو اختلاسا أو متاجرة باللذات والشهوات حيثما اتفقت . وهذه على الأقل هى البوهيمية كما اصطلح عليها العرف الشائع بين أبناء الحضارة وصفا لما عهدوه من عادات « الزط » المترحلين

وكان هؤلاء الزط ينزلون حيث نزلوا الى جوار الحواضر ومعهم فتياتهم يردن لهم البيوت والديار وقد يكشفن لهم ثغرات المدن للاغارة عليها كلما أمكنتهم الفرصة أو العوز

قال ابن خلدون : « هم قوم من أخلاط الناس غلبوا على طريق البصرة وعاشوا فيها » ..

---

(١) الشطار : جمع شاطر وهو من اعيا أهله خبثا .

وتفاقم خطبهم أيام الخليفة المعتصم فاجترءوا على مهاجمة المدن ونهب بيادرها وحمل أرزاقها ، ولم يأمن شرهم حتى جرد لهم قائده عجيفا وحصرهم بقطع الأنهار وسد مسالك الطرق ثم أسر منهم أكثر من عشرة آلاف مقاتل نقلهم الى عين زربة فأخذهم الروم بنسائهم وذراريهم فى غارة من غاراتهم على تخوم آسيا الصغرى

أما فى جيل أبى نواس فلم يكن قد وفد منهم على جيرة البصرة غير طلائع متفرقة ، يقطع بعضهم الطريق فى البادية وينزل بعضهم الى جوار الارباض[1] المتطرفة ، ويجرون على عاداتهم التى تلخصها كما أسلفنا كلمتان : التشرد والتحلل من عرف المجتمع وآداب الحضارة

وكانت الفئة التى اشتهرت باسم « الشطار » بعض طلائع هؤلاء الأخلاط وهم المثل المقتدى به عند أبى نواس كما جاء فى مجونه وخمرياته، ومنها فيمن يقول إنها لامته على صحبتهم جاهلا شرورهم :

وملحة باللوم تحسب أننى   بالجهل أوثر صحبة الشطار

ومن كلامه فى منادمة الفتاك :

خندريس[2] عطر النكـ   ـهة كالمسك السحيق
انما طابت لذى فتـ   ـك تردى بفسوق
جاهر الناس بما يأ   تيه فى ضنك وضيق
وبدا فى الناس مشهو   را كذى الرأس الحليق

أى كالفاتك الذى يأخذه أولياء الأمر ويحلقون شعره ويطوفون به للتشهير ، وفى كل هذا مواضع تأمل لما يتحدث به الوعى الباطن من سريرة أبى نواس أو يحن اليه مزاج الاباحية والغرام بالخروج على العرف المألوف ..

ومن أمانيه فى هذا المقصد أن يقطع الطريق ان لم يرتفع الى منادمة الخلفاء ..

سأبغى الغنى اما جليس خليفة   يقوم سواء ، أو مخيف سبيل

---

(١) الارباض : جمع ربض وهو ما حول المدينة من بيوت ومساكن .
(٢) خندريس : الخمر القديمة .

بكل فتى لا يسـتطار جنانه   اذا نوه الزحفان باسم قتيـل
لنخمس مال الله من كل فاجـر   أخى بطنـة للطيبات أكـول

ولما خرج من بغداد ينوى الرحلة الى مصر أحب أن يمثل الشطارة بزيه وثيابه اذ كان لا يقوى على تمثيلها بسيوفه وحرابه ، فخرج كما جاء فى أخباره لابن منظور « بزى الشطار » ، مصففا شعره موسعا كميه يجـرر ذيله على حد قوله فى مجونياته :

« يجرر أذيال الفسوق ولا فخر »

ويروى فى ترجمته أنه سأل أستاذه والبة بن الحباب أن يخـرج الى البادية مع وفد بنى أسد ليتعلم العـربية والغريب ، فأخرجه مع قـوم منهم ، فأقام بالبادية سنة ثم قدم ، ففارق والبة ورجع الى بغداد

ولم يرد فى ترجمة أديب من بنى عصره أنه ذهب الى صحراء بنى أسد ليتعلم العربية والغريب فيها ، فالراجح أنها كانت جمحة من جمحاته فى مصاحبة الشطار ثم أشفق من مغبتها وسكت عنها مخافة الطلب والقصاص

***

تقول الدكتورة كارين هورنى فى مراقبتها النسوية للنرجسيين أنهـم يتعلقون بالمشروعات ولا يثبتون عليها ، ويتنقلون من حرفة الى حرفة ومن مظهر الى مظهر ليطمئنوا الى تمثيل الشخصية التى يستريحون اليها

ويقول فليشر Flesher فى كتابه عن الصحة العقلية والوقاية من الأمراض النفسية أو العصبية (١) . « أن اشتهاء القوة المشتق من غريزة العـدوان وحب النفس النرجسى يشترك على التساوى فى هذه الرغبة ــ رغبـة التشبه بالكبار فى كل مايفعلون .. وان اعجاب الطفل بقدرة الكبار ينبغى أن يعزى الى تمديد الشخصية الغالبة فى النرجسية ليخلعها على أحدهم ، وبخاصة خلال الطور الأول من أطوار الافتتان بالذات »

فاذا كانت الشطارة حلما من أحلام اليقظة تكبح مخاطرة الغـلام النحيل الرقيق الذى لا قبل له بتلك المخاطر المسـتهولة ، ففى البيئـة

(1) Mental Health and Prevention of Neurosis.

الاجتماعية التى ترعرع بينها هذا الغلام ألوان مسـتطاعة مما يحلم به ويميل اليه طبعه ويرضى أهواء النرجسية فى طويته . ويكاد أبو نواس يتشكل بكل شكل منها على التعاقب أو فى وقت واحد ، متتبعا للمطالب المتنافرة التى لا يتأتى له الجمع بينها ، ولا يجمع بينها عنده الا تجـاربه للشخصيات الجذابة التى يقدر أنها تلفت اليه الأنظار وتوافق « الفتنـة الذاتية » التى لا تستقر على قرار

فتعلم العزف على العود ودق الدفوف ليسلك مسلك المسمعين والقيان بين طلاب الملاهى والفنون ، وتعلم التنجيم وتعلم اللغـة وتعلم الفقـه والحديث وتعلم القراءة والتجويد ، ونظم الشعر وروى قصائد الفحول ، وتعلم العطارة والتجارة ، وتعلم الأخبار والأنساب ، وتردد على معـاهد الدرس ومعاهد الرقص والسكر والمجون وتداول هذه الأدوار كأنمـا يخلع لباس دور من أدوار التمثيل ليلبس غـيره على المسرح ، ولكنه مسرح الحياة ..

وروى أبو هفان « أن أبا نواس لما تأدب ونشأ وظرف ورغب فيه فتيان البصرة للمصادقة قال : لا أصادق الا رجلا غريبا شاعرا يشرب الخمور ، يصفها ويصف المجالس ، ويكون له سخاء وشجاعة . فذكروا له جماعة . فلم يحب ان يكون الرجل من أهل بلده ، فهرب الى الكوفة ، وذكر له بها رجل من بنى أسد يقال له والبة بن الحباب ، يشرب الخمر ويقول الشعر ويجمع الخصال التى أرادها »

وهذا تلفيق ظاهر لا نخاله يروى قصة واقعيـة ، ولكنه اذا أريد به تمثيل « الشخصية النواسية » أصدق من التاريخ فى تصور هذه الشخصية ولا يكون أبو نواس الا هكذا فى اختياره للناس والتـذرع للسفر والاقامة ..

وأيا كانت الشخصية التى يتلبس بها للعرض والظهور ، لقـد كانت وراءها جميعا تلك « النرجسية الجنسية » التى تغريه أن يتشكل بجميع هذه الأشكال ويتطور بجميع هذه الأطوار ، وما نسيها ولا انسلخ منها

وهو يغشى معاهد الدرس والتقوى ، وكان كل أمرد يغشى معاهد الدرس على هذا المثال فى عرفه كما قال :

اذا ما وطىء الأمـــــر ... د للعلم حصـــا المسجد
فقـــل حـــل لنا عقـــدا ... من العفـــة واستسفد
فان كان عروضـــيا ... فقولوا ســجد الهدهد
وان أعجبـــه النحـــو ... فهـــا ذاك له أجـــود
وان مـــال الى الفقـ ... ـه فللفقـــه له أفســد
وان كـــان كلاميـــا ... فحـــرك طـــرف المقود
وميله الى الخــــير ... ففيـــه قرب ما يبعـــد
وخـــذه كيفمـــا شـئـ ... ـت اقتضابا او على موعد
وقل : هـــذا قضاء اللـ ... ـه هل يدفع أو يجحـــد ؟

وانتهى مصرحا :

فيامن وطىء المســجد ... من ذى بهجـــة أغيـــد[1]
أنا قســــت على نفسى ... فهــــذا الأمر لا أجحد

وقد كان يستند الى سارية فى معهد من هذه المعاهد حين كتب اليـــه ابن مناذر يمدحه بأبيات من الشعر فيما روى الرواة فأجابه يفهمه أنه يتصدى للحباء وزينة الأزياء

ألذ عندى من مديحك لى ... سود النعال ولين القمص

ويخيل الينا أنه لو نبت فى بيئة اجتماعية تخالف بيئته تلك لما انثنى عنانه الى غير المواطن التى تجذبه اليها آفته النفسية ، فانما هذه الآفات كالثمرات فى التربة المزروعة تمتص كل ثمرة من أرضها وهوائها وضيائها ما يلائم بذورها ويوائم طعمها وشكلها ولونها .. والى جانبها على مد الباع ثمرة أخرى تمتص من التربة والجو طعما غير ذلك الطعم وشـــكلا غير ذلك الشكل ولونا غير ذلك اللون ... وفى البذور سر ذلك التباعد على القرب بين الثمرتين

أما وهو قد نبت بين إباحية الشطار وإباحية الشذاذ من جميع الآفاق

---

(١) أغيد : الاغيد من الظباء اللين الاعطاف ، ومن النبات الناعم المنثني .

فى مآلف الغواة والفساق ، فقد كانت المحنة أقوى من طاقة المقاومة عنده لو أنه يقاوم ، وانما كان على عكس ذلك ينطلق انطلاقه ليسبق النظـراء فى حلبة الجماح والمجاراة

العصر السياسي

العصر الذى أحاط بحياة أبى نواس يبتدىء من أوائل القرن الثـانى للهجرة الى نهايته ، وهو عصر سقطت فيه دولة بنى أمية وقامت فيه دولة بنى العباس ، وأمثال هذا العصر فى تواريخ الأمم يتسم بسمات الانقلاب ويشيع فيها اليأس من جانب والمجازفة من جانب ، ويتبدل فيها الولاء غير مرة بين النجم الآفل والنجم الطالع ، ولا تطول فيها الثقة بشىء حتى تثوب الأمور الى قرار

كان فيها لسان حال الأمويين يتردد فى صيحة ابن سيار :

أرى خلل الرماد وميض جمـر ... ويوشـك أن يكون له ضرام
وما أدرى ولست أخال أدرى ... أأيقـاظ أميـة أم نيـام
ففـرى عن رحالك ثم قـولى ... على الاسلام والعرب السلام

ومثلها أبيات عباس بن الوليد :

انى أعيـذكم بالله من فتـن ... مثل الجبال تسـامى ثم تنـدفع
ان البرية قـد ملت سـياستكم ... فاستمسكوابعمود الدينوارتدعوا

ولم يكن بنو أمية خلوا من ذلك الملل الذى قال ابن الوليد أنه عم البرية ، فان الأمويين انقسموا فى بيت الملك منذ ابتدعوا عادة التوصية لولاية العهد باثنين فى وقت واحد ، يزاحمهما من بينهما من لم تشـمله الوصاية ، فلم ينقض عهد خليفة من خلفائهم دون مؤامرة من هنا ودسيسة من هناك ، ونفاق يتراءى هنا وهناك

وهذه المؤامرات فى بيت الملك تقابلها فى الرعية شعب متفرقة بين الفرس والعرب ، وبين القحطانيين والعدنانيين من العرب أنفسهم ، بل شـعب

متفرقة بين كل معسكر من هذه المعسكرات ، فلا القطانيون ولا العدنانيون مجتمعون على هوى واحد ، ولا الخلاف حيث كان يرجع الى سبب واحد . فربما تمرد أناس من الفرس لثقل الضريبة ولا سبيل الى تخفيفها كلما افتقرت الدولة المتداعية الى المال للتدعيم والتقويم أو افتقرت اليه لاستشراء[1] عادات الترف وانتشار الغصب والاختلاس بين العمال ، وربما تمرد أناس منهم لأنهم على حد قول القائل :

اذا لم يكن للمرء فى دولة امرىء   نصيب ولا حق تمنى زوالها

فلا تسلم الدولة من عداء السوقة الفقير الذى حرمته الدولة رزقه وعداء السيد الغنى الذى حرمته الدولة ميراثه من الجاه والعتاد ؟

ووراء هؤلاء جميعا قوم لا يرضون عن أحد ولا يرضى أحد عنهم ، وهم الخوارج الذين حكموا على هذه الطوائف جميعا بالكفر وجردوا مرتكب المعاصى من الاسلام ، وليس أكثر من مرتكبيها فى ذلك الزمان

وبعد شقاق طويل فى معسكر الدولة الذاهبة تقبل الدولة الجديدة وهى مشعبة بين فرعين : فرع بنى على وفرع بنى العباس ، وقد والاها من والاها فى ابان الدعوة اليها باسم العلويين ثم اتفق وجود زعيم بنى العباس بالكوفة عند انهزام بنى أمية فبادر أعوانه الى مبايعته وذاع يومئذ انها بيعة الى حين انتظار امام العلويين ، ولم تمض غير سنوات حتى وضح أن العباسيين لا ينزلون عنها وتولى الأمر خليفتهم الثانى بعد أن كان الغالب على الظن أن الخليفة الأول يوصى بها لصاحبها العلوى من أيام الدعوة وهو محمد « صاحب النفس الزكية » .. فنشط محمد لها وآزره العديد الجم من الأهواز والعراق واقتحم أخوه ابراهيم البصرة فدان له أهلها ، وتمت البيعة له أو كادت لولا غلبة أبى جعفر على بغداد . فلم يلبث أولياء العلويين فى البصرة أن تحولوا فجأة أو على مهل الى ولاء العباسيين

كل هذا وأبو نواس فى سن الفهم والوعى يناهز العاشرة ، ولا يفوته أن يعى مايرى من تبدل الحال وتبدل الولاء وتقلب الناس مع السلطان والمال ..

---

(١) استشراء : استشرى الامر تفاقم وعظم .

ثم تتساند الدولة الجديدة ويسطع فيهـا نجم الرشـيد . ثم يذهب الرشيد والناس لم يتركوا الحديث عن المستخلفين الموعودين من أئمة العلويين ، ولكن الرشيد يقسم الدولة بين ولديه ويجعل للأمين ولاية العهد بعده ويجعل للمأمون ولاية المشرق برعاية أخيه ، فلا يمضى قليل حتى ينتقض العهد بين الاخوين ، ويعيش الشاعر على مقربة من قصر الملك ببغداد ، فيرى سـيد القصر بين خاصته وجنـده وذويه وهم يتداولون تسليمه الى عدوه مرة بعد مرة ، ويقتله من أؤتمن عليه ..

وكان الشاعر يذهب حيث ذهب فلا يلقى فى الرقعة الطويلة العريضة غير الثورة واشراطها ومقدماتها ، وقسم له فى مصر ان يشهد بوادرها وان يعين واليها « الخصيب » على تسكينها ، فخاطب الشاغبين بأبياته التى يقول فيها :

منحتكم ياآل مصر نصيحتى ألا فخذوا من ناصح بنصيب
ولاتثبوا وثب السفاهفتحملوا على حد حامى الظهر غير ركوب
فانيك باقافكفرعون فيكم فان عصا موسى بكف خصيب
رماكم أمير المؤمنين بحيـة أكول لحيـات البـلاد شروب

ولم تكن هذه الثورة يومئذ الا الى عودة ؛ ولم تنقمع بعد عودتها الى أن حشد المأمون جيوشه بقيادته ، ولم يعتمد فى قيادتها على أحد من ولاته

والذين زاملوا أبا نواس فى هـذا العصر كثيرون ، منهم الشـعراء والأدباء ، ومنهم الظرفاء والندماء ، ومنهم العلماء والحكماء ، ولكن أحدا منهم لم يبتل بمحنة العصر كما ابتلى بها ، وليس ذلك لأنه كان مستعدا للاباحة بتكوينه وتربيته وحسب ، بل لأنه عاش فى قلب التقلبات ولم يكن أثرها فيه مقصورا على المعية فى الزمن ، فأبوه كان من جند بنى أمية وضاع رزقه فى الجيش الاموى بقيام الدولة الجديدة ، وأمه من الأهواز حومة القتال بين كل خصم وكل خصم ينازعه ، ومن جراء هذه المنازعات وحرمان زوجهـا الرزق الرتيب هاجرت من موطن قومها الى البصرة ، وهذه البصرة كانت حومة أخرى للدعوة السياسية جهرا وسرا وبالاقناع

والارهاب ، فلما آن لوليد هذين الأبوين أن يفهم ويعقل فهم أن الدنيا كلها نفاق وشقاق ولم يعقل من أحداثها وخلائقها الا أنها اباحة ورياء

العصر الثقافي

وتصطلح على الفتى محنة العصر الثقافى ومحنة العصر السياسى فى ضربة واحدة ، فقد كانت مدن العراق يومئذ ملتقى كل ملة ومجتمع كل نحلة ، وكان يغشى البصرة والكوفة مجوس وزنادقة كما يغشاها أهل الهند والصين على اختلاف عاداتهم وشعائرهم ومطالبهم فى أوقات جدهم ولهوهم ، وكان من حوله مشتجر[1] المذاهب حتى فى النحو والفقه بل فى الفلسفة وعلوم الكلام ، وما يجاورها أحيانا من حذلقة المتعالمين ودعاوى المتظرفين ، وتعدى اللغط بالخلاف والجدال فى هـذه المسائل طائفة المتأدبين والمتحذلقين الى سواد الناس ممن يطلع فى الكتب الغريبة أو يطلع فى الكتب المأثورة أو لايطلع على هذه ولا تلك ولا يرجع فى اعتقاده الى اطلاع ..

فالاباحية التى نادى بها بابك الخرمى فى السنة الأولى من القرن الثالث للهجرة لم تفاجىء العراق ولا جيرتها من البلاد الفارسية ، ولكنها كانت نحلة يدين بها ألوف من العامة وسواد الناس فى شمال العراق ، ويتفلسف بها المتحذلقون من المتظرفين ليجعلوا لها محللا من الفكر والطبيعة كأنها تبالى الحلال والحرام ، وهى فى جوهرها تستبيح كل محظور . وقد هزم « بابك الخرمى » جيشا بعد جيش من أقوى الجيوش العباسية ، ولم يهزم قائد المعتصم الجبار ابراهيم بن مصعب جموع الخرميين الا بعد أن قتل منهم ستين ألفا وشتت أكثرهم فلبثوا فى انتظار الفرصة الى حين ثم أغار عليهم جباره الآخر حيدر بن كاوس الافشينى فطاولهم وطاونوه حتى ظفر بزعيمهم وساقه مع أهله أسارى الى بغداد

ولم يقض أبو نواس سنة واحدة بعد خروجه من البصرة والكوفة الا حيث ينغمس كما أسلفنا فى « قلب التقلبات » ولا يلامسها ملامسة

(١) مشتجر : اشتجرت الاشجار : اشتبكت وتشابكت والتف بعضها ببعض .

« المعية » فى الزمن وحسب . فلما طلعت بوادر الثورة فى مصر كان هو ضيف الخصيب ونديمه ، ولما استفحلت الثورة فى عاصمة الدولة كان هو ضيف الأمين ونديمه ، ولما أقصاه الأمين عنه حذارا من وصمته كان ذو الرئاستين ــ داعية المأمون ــ يصف القوم جميعا فيقول إنهم « أهل فسق وفجور وخمور وماخور .. »

بل كان رهط الزندقة قاطبة يقيم حيث أقام أبو نواس ..

ومن آفات الاباحة فى العصر الثقافى مايصيب أبا نواس وأضرابه خاصة فيغريهم بالاباحة حيث لايغرى بها كل نابت فى ذلك العصر أو مطلع على مذاهبه الثقافية

فالهوس بالاباحة ــ احتجاجا على نفاق العلية وأرباب المقامات ــ انما يعترى أبا نواس وأضرابه لأنهم يرشحون أنفسهم بحكم ثقافتهم لأرفع المناصب وأشرف المجالس وأوجه المراسم . فهم أكفاء أهلها بالثقافة والدراية أو أرجح منهم كفاءة وكفاية ، ولكنهم يصدون عنها ويرون من أهلها الاحتجاز عنهم والاعتزاز عليهم بسمتهم ومهابتهم ، فلا يلعجهم[(١)] شىء كما يلعجهم الولع بهتك ذلك الحجاز وتلويث ذلك السمت واستباحة ذلك الذمار[(٢)] ..

فلا يعانى الوضيع الجاهل مثل هذا الدافع العنيف الى استباحة الوقار الذى يتدثر به سادة المجتمع . ولا يعانى الوجيه العالم دافعا مثله ، لأن وقار المجتمع وقاره ، وسيادة العرف سيادته .. وانما يعانيه أشد المعاناة وضيع يتسامى الى الوجاهة بحقها ولا يزال مذودا عنها ، منظورا اليه بين أهلها من عل وان ضارعهم فى مراتبها ومراسمها

وعلى هذا الرفرف المضطرب بين الضعة والوجاهة كان أبو نواس لا حرمة له بين الحرمات ، فماله يغار عليها من الاباحة والابتذال ؟!

ولا نعرف اسما أصدق من اسم الهوس يطابق ذلك الولع بعرض الاباحة والتحدى بها كما اشتهر بهما أبو نواس غير مزاحم فى هذه الشهرة بين أبناء عصره

---

(١) يلعجهم : لعج فلان البدن بالضرب : آلمه وأحرق جلده · والحب فؤاده : أحرقه · (٢) الذمار : كل ما يلزمك حفظه وحمايته ·

فلا يكفى لاغراء المرء بهذا الولع أن يكون صاحب مذهب فى الزندقة فقد يعتقد الزنديق استحلال المحـرمات فيبيحها لنفسه ويقارفها[١] سرا أو لايعنت نفسه بالتستر والتجمل ، ثم لايزيد على ذلك

ولا يكفى لاغرائه بذلك الولع أنه يتحدى ذوى الوقار لأنهم يحتقرونه ويترفعون عليه بسمتهم وكبريائهم . فان المرء اذا تسامى الى الرفعة ونبذه أهلها قد يضطر اضـطرار المغيظ المحنق الى هتك السـتار عن ريائهم والاستخفاف بصيانتهم وهو يود لو لم تلجئه الضرورة الى هذا المأزق المكروه ، وفرق بعيد بين هذا التحدى المستنكر وبين ارتياح المرء الى عرض الاباحة كأن العـرض غرض مقصود لذاته ، وكأنه لذة أمتع من اللذات التى يستبيحها

وقد كان أبو نواس يتقى من حسن السمعة مايتقيه الانسان السوى من مدمتها ، وقد أشرنا الى طرف من كلامه فى ذلك عند الكلام على النرجسية ، ونشير هنـا الى نادرة هى جماع النوادر فى هوى العرض وشهرة السوء .. رواها ابن منظور فى أخباره فقال إن اخوانا له أشاعوا « أنه تاب ونزع عما كان عليه من الفسوق والخمر ، فأقبل الناس يهنئونه ، فجعل يكذب ذلك ويقول : والله أنا شر مما كنت . فلما كثر ذلك عليه دعا بخمار يهودى غلام وأجلسه فى جانبه ومعه خمر ، فكلما جاء من يهنئه يقول لليهودى قبل أن يتكلم : صب لى من خمرك ، فيشرب قدحا ثم يقبل اليهودى ويقول للذى جاء يهنئه : قد رأيت صحة التوبة ! ثم قال فى ذلك :

قالوا نزعت ولما يعلمـوا وطـرى
فى كل أغيد ساجى الطرف[٢] مياس
كيف النزوع وقلبى قد تقسـمه
لحظ العيون ولون الراح فى الكاس
اذا عـزمت على رشـد تكنفنى
رأيان قد شـغلا يسرى وافلاسى

---

(١) يقارفها : يرتكبها • (٢) ساجي الطرف : ساكن ، فاتر النظر •

فاليسر فى القصف واللذات أخلسها
والعسر فى وصل من أهوى من الناس
لا خير فى العيش الا فى المجون مع الأ
كفاء والحور والنسرين والاس
ومسمع يتغنى والكئوس لها
حث علينا بأخماس وأسداس
يا مورى الزند قد أعيت قوادحه
اقبس اذا شئت من قلبى بمقباس

فليس هذا ولع المتمذهب بزندقة ولا ولع المضطر على رغمه ، وانما هو هوس المغلوب على طبعه منحرفا عن الخلق السوى فى كمين هواه

والانحراف الوحيد الذى يفسر هذا المرض فى جميع أعراضه هو النرجسية أو الغرام بالذات

فداء أبى نواس هو النرجسية بدخائلها وتوابعها وخفاياها وألوان شذوذها

وليس داؤه الشذوذ الجنسى بمعنى الشغف بأبناء جنسه والاعراض عن المرأة ، فانه لم يكن يعرض عن المرأة ، وليس الشذوذ الجنسى بهذا المعنى دافعا الى العلانية والاباحة ، وعلماء الأمراض النفسية يدرسون حالتين من أحوال هذا الشذوذ لكل منهما أسبابها وعوارضها وعلاقتها بسلامة البنية اجمالا وبالغدد الصماء على التخصيص ، ولكل منهما كذلك ملابستها البيتية والاجتماعية ، فلا يتشابه الشاذ الفاعل والشاذ المنفعل بالملامح والسمات ولا بالأخلاق وعوامل النشأة البيتية والاجتماعية ، ثم لا يتشابهان فى العلاج النفسى عند الأطباء المختصين

والقرائن التى تفسر احدى الحالتين من الشذوذ لا تفسر الحالة الأخرى ، بل لعلها تناقضها وتبطلها ، فلا يمكن أن يجتمعا الا فى شذوذ واحد هو شذوذ النرجسية بل يجتمع معهما فى النرجسية هوى المرأة وغير هذا الهوى من العادات المريضة كالدلك أو جلد عميرة ، وقد كان

أبو نواس أول من لهج به من الشعراء ونظم فيه لمناسبات لاداعي لاستقصائها . وهذا الدلك من أعراض المتمة النرجسية حيث يستخدم النرجسي خياله لتشخيص ذاته Autoerotic Gratification

❋❋❋

وجملة القول أن هذه الآفة تفسر كل عادة من عادات الحسن بن هانيء وكل خبر من أخباره وكل نزعة من نزعاته : تفسر غرامه الفاعل والمنفعل ، وتفسر غرامه بالنساء وكل ماعرف عنه من الشذوذات الجنسية ، وتفسر ولعه بالعرض والعلانية واستهتاره بسوء القالة .. لأن هذا كله يتولد من تشخيص الذات بالصورة التي يستملحها النرجسي ويتخيلها في خوالجه الجنسية ، ومن هيامه بالعرض والعلانية ولفت الأنظار الى « الذات » وتقرير وجودها بالتحدي والمخالفة ، أو مايسمونه في التعبير الشائع «المكايدة» ، ويوشك أن يقصروه على الشواغل الجنسية دون غيرها

وكلما أمعن الباحث النفسي في دراسة هذه الشخصية بدا له أنها من كل وجه « شخصية نموذجية » في بابها ، وأنها « لقطة » لا تظفر بها المشرحة النفسية في كل دراسة . ففيها أثر التكوين المولود وأثر البيت واثر البيئة الاجتماعية وأثر العصر من جانب السياسة وجانب الثقافة ولديها تثبت العلامات التي يتشكك فيها النفسيون اذا طرأت منفردة متفرقة لاتتصل بالقرائن الأخرى فاذا اتصلت جميعا .كما اتصلت في هذه الشخصية النموذجية فهي أدل ماتكون على أعراضها وآفاتها

الشيطان

للشيطان تاريخ قديم مع الشعر ، وموقع متغلغل فى الدراسات النفسية ، وأولها دراسة الدخائل المرضية

فنحن نعلم من أدب الجاهلية قصة أولئك الشياطين الذين يصحبون الشعراء ويوسوسون لهم بدقائق المعانى وخفايا الأفكار التى لاينفذ اليها الناس بغير معونة الجن . ونعلم من شعر النابغة أن الجن هى التى بنت لسليمان بن داود هياكل بعلبك كما قال :

الا سليمان اذ قال المليك له
قم فى البرية فأحددها عن الفند(١)
وخيّس(٢) الجن انى قد أذنت لهم
يبنون تدمر بالصفاح(٣) والعمد

ولكن الشيطان هنا شيطان فنى أو أستاذ فنان لاشأن له بوساوس الضمائر ووساوس الأخلاق ، وكل شأنه أن يصنع مايعجز الانس عن صنعه لدقته أو ضخامته وفخامته ، وقد كان أرباب الفصاحة كما قال أبو العلاء :

.. كلما رأوا حسنا عدوه من صنعة الجن

هذا الشيطان « الفنى » لايعنى أصحاب الدراسات النفسية ولا مدخل له فى الوساوس المرضية ، انما يعنيهم الشيطان « الأخلاقى » الذى يرمزون به لحالة من حالات الضمائر على سواء أو على عوج ، لأنهم يرمزون به أبدا لقيمة وجدانية تتشخص فى ضمير الانسان على نحو من الانحاء

وعلى هذا لم يكن الشيطان عندهم شيطانا واحدا بل عدة شياطين ،

---

(١) الفند : الباطل · (٢) خيس : خيس الرجل ذلله · والدابة راضها وذللها · (٣) الصفاح : الاحجار العريضة ·

وهم يصاحبون الشعراء أيضا فى هذا المجال ، ولكن الآية فى هذا المجال معكوسة يقوم فيها الشعراء بصنع شياطينهم على الصورة التى يتخيلونها ... فكل شيطان هو بطل يصوره الشاعر كما يصور أبطال ملاحمه وتواريخه ، ويكاد كل شيطان من هذا القبيل أن يعرف باسم شاعره المختار ..

فهناك الشيطان رمز الكبرياء والتمرد ، وقد صوره الشاعر الانجليزى ملتون Milton فى فردوسه المفقود وصوره الشاعر الايطالى Carducci فى نشيده الى ابليس ، وأجمع النقاد على أن الشاعرين قد صوراه مريدا (١) متكبرا ثائرا لأنهما عاشا فى ابان ثورة عنيفة فوضعا على لسانه الكلام الذى يريدانه ويخفيانه فى مضامين القول أو يعلنانه ..

ومع هذا الارتباط بين ثورة انجلترا وشيطان ملتون ، وبين ثورة ايطاليا وشيطان كردوتشى ، يرى النقاد أن هذين الشيطانين نسخة مقتبسة من أقدم الشياطين المتمردين فى آداب العالم المحفوظ ، وهو الرب اليونانى القديم برومثيوس Prometheus الذى تمرد على رب الأرباب زيوس ليعلم أبناء آدم ما أخفاه الأرباب عنهم ، ويتخذ من هؤلاء الآدميين تلاميذ له ومريدين

وملتون وكردوتشى مسيحيان ، ولكن النقاد يقولون إن الشيطان فى شعرهما أقرب الى صورة برومثيوس من الصورة التى مثلها العهد القديم لابليس الرجيم ..

وعلماء النفس يستنبطون من صورة برومثيوس والنسخ المنقولة عنها أن التمرد عريق فى طبيعة الانسان

وهناك عدا الشيطان الذى يرمز الى التمرد والكبرياء شيطان يرمز الى السحر والمعرفة الباطنية وهو مفستوفليس بطل رواية فوست من نظم جيتى شاعر الألمان

واسم مفستوفليس على الأرجح منحوت من ثلاث كلمات يونانية بمعنى الذى لايحب النور ، لأنه يتعلم المعرفة ويعلمها كأنها ضرب من

---

(١) مريدا : شيطان مريد أي خبيث شرير .

التجسس فى الظلام على الأسرار الالهية ، فهو يلتمسها فى السحر والطلاسم ويجعلها ألغازا يتولى حلها لمن يشاء

وهذا الشيطان كما صوره جيتي والشعراء من قبله ، يصنع أكسير الحياة ليطيل به العمر ويرد به الشباب الى الشيوخ ويساوم به على الضمائر والأرواح فمن باعه الحياة الأبدية أخذ بديلا منها المتعة والقوة والسيطرة بالمعرفة فى حياته الأرضية

وعند النفسيين أن هذا الشيطان متمرد متكبر كذلك الشيطان ولكنه يتمرد بعقله من حيث يتمرد ذلك الشيطان بنفسه ، وسلاحه المعرفة من حيث يتسلح زميله القديم بالشجاعة الحربية

ولم يبتدع النفسيون المحدثون هذه الفكرة بعلمهم الحديث اذ الواقع أن الأقدمين من أهل الثقافة اليونانية أو العبرية كانوا يحسبون المعرفة كلها ضربا من التمرد والتطاول على علم الاله العليم . فاليونان الأقدمون كانوا يسمون هذا الفضول الانسانى بالهوبرى Hubris والعبرانيون الأقدمون كانوا يسمون الشجرة التى أكل منها آدم بشجرة المعرفة ولا يحمدون من الانسان أن يتطاول الى علم كعلم الاله

فالتمرد خلة مشتركة بين شيطان ملتون وكردوتشي وشيطان جيتي وقد فضل جيتي شيطان المعـــرفة لأنه كان فى عصر النهضة العلمية ببلاده ، وفضل الشاعر الانجليزى والشاعر الايطالى شيطان الغضب والتحدى لأنهما كانا يغضبان ويتحديان ويمثلان ثورة الأمتين على سلطان الملوك وسلطان الكهان ..

وتزاد على هاتين « الشخصيتين » الشيطانيتين صورة أخرى من قريحة شاعر شرقى ، يتخيلها فى بعض أحلامه ويرينا فيها الشيطان فاتنا وسيما يكذب بملاحته أقاويل أبنـــاء آدم عن دمامته وقبحه ، لأنهم مطرودون موتورون ! [١]

ذلك الشاعر الشرقى هو (السعدى) صاحب البستان والجلستان ، وأكثرهما مترجم الى اللغة العربية

---

(١) موتورون : الموتور من له ثأر عند غيره .

فمن قصائده تلك القصيدة التي يتحدث فيها عن حلم رآه كما زعم أو كما تخيل ، فيقول :

« رأيت الشيطان فى حلم .. فيا عجبا لما رأيت ..

« رأيته على غير ما وهمت من صورة شنعاء تخيف من ينظر اليها ..

« قامة كفرع البانة . عينان كأعين الحور . طلعة كأنها تضيء بأشعة النعيم ! ..

« قاربته وسألت : أحق أنت الشيطان المريد ؟ أحق ذاك ولا أرى ملكا له جمال محياك ؟ ولا عينا قد نظرت الى شبيه سيماك

« مابال أبناء آدم يتخذونك لهم ضحكة فيما يصورونك ؟

« وفى وسعك أن تجلو لهم وجها كصفحة البدر ، ونظرة تتهلل ببهجة الرضوان ؟ وابتسامة تشرق بالنعيم ؟ »

« أولئك الرسامون يبغضونك الى العين ، وحمامات الانس تكشفك لنا فى صورة تنقبض لها القلوب ! »

« ويقولون لى : انك كالليل البهيم

« وما أرى أمامى الا الصباح المنير

***

« سألت وتسمعت ..

« فتحرك الحلم الساحر ، وترفع له صوت فخور

« ولاحت على طلعته كبرياء ، وقال :

« لا تصدق ياصاح أنه مثالى ذاك الذى رأيت فيما يمثلون ..

« فان الريشة التى ترسمنى تجرى بها يد عدو حسود

« سلبتهم السماء ، فسلبونى الجمال ...

***

وهذه صورة للشيطان لانستغربها من مصورها . فقد كانت للسعدى طبيعة يمتزج فيها التصوف بالحكمة العملية ، وقد طاف الرجل أقطار الشرق وجاس خلال فارس والعراق والهند وعاش بين الوشايات وقصور

الأمراء والوزراء ورأى أناسا بعد أن سمع عنهم وسمع عن أناس بعد أن رآهم،فخرج من سياحاته وتجاربه وهو يعلم ماوراء الثناء وماوراء المذمة، وشعاره فى الحياة « ألا تصدق كل مايقال » . ولا شك فى أنه لم يصور الشيطان على تلك الصــورة التى تخيلها أو حلم بها الا بعــد أن رأى الشياطين من الانس فى أجمل صــورة وقاس الأمر بعقله فخطر له أن الشيطان خادع محتال وأنه لن يخدع الناس ويستهويهم بوجه يقابلونه بالنفور والاعراض ..

وتزاد بعد هذه الشخصيات الشيطانية المتباعدة أو المتقاربة شخصية أخرى يعدونها مثالا للشيطان الذى يخلقه الشاعر على صورته ، وذلك هو شيطان الشاعر الروسى لرمنتوف Lermentov الذى عاش فى أوائل القرن التاسع عشر وسمع من بعيد بمقلقات الفكر فى غرب القارة الأوربية

فهذا الشيطان الذى صوره لرمنتوف هو لرمنتوف بعينه مزيدا عليه مايتمناه ولا يناله لأنه انسان ، فان الشيطان يتشكل بما شاء من الأشكال ويظهر للعيان أو يتوارى كما يشاء ، وقد يتوارى عن قوم ويبدو لغيرهم وهم فى مجلس واحد

وهذا الشيطان مسكين معرض للغواية باختياره ، فهو يحب فتاة من الانس ويتراءى لها متجملا فى أبهج حلله فتهواه وتكاد أن تجفو خطيبها من أجله ، ثم يغار الشيطان من ذلك الخطيب فيقتله وينقل جثته الى الفتاة لتوقن من وفاته وتنساه فتنقلب الآية وتحزن عليه حزنا يحجب عن عينيها محاسن الحياة فتأوى الى الدير وتنذر الرهبانية مدى الحياة .. ويجن جنون الشيطان فيلاحقها ويتصــدى له الملك الحارس عنــد باب الدير وتصطرع قوة الشر وقوة الخير فينهزم الملك وينتصر الشيطان ، وينفذ الى حجرة الفتاة فيملك الجسد وتصعد الروح الى السماء

ولم يتصرف لرمنتوف كثيرا فى نقل هذه الصورة من ذات نفســه ، ولم يبتعد بالحادثة كلها عن المكان الذى أقام فيه وهو يكتب القصة ، فقد أجراها فى بلاد القوقاز حيث كان يقيم منفيا مغضوبا عليه ..

هذه نماذج من الشياطين ، بين نموذج الشيطان المتكبر المتمرد ونموذج الشيطان الوسيم القسيم ونموذج التيطان الساحر الساخر ونموذج الشيطان الخادع المخدوع

ولعه بالشيطان

وقد كان أبو نواس كثير اللهج بذكر الشيطان ، كثير التعويل عليه فى غواياته ومغامراته ، فأى هذه الشياطين هو شيطانه « المختار ؟ » .. وأى أثر لشخصية أبى نواس فى شخصية ذلك الشيطان ؟

ان شيطان أبى نواس هو الشيطان الذى يريده ، أبو نواس ، أو هو الشيطان الذى يلزم أبا نواس

ففيه كل خلة من هذه الخلال بالقدر الذى ينتفع به أبو نواس . فيه التيه والخبث والعلم والحيلة والظرف على حسب الطلبة الموقوتة والحاجة العارضة ، وكأنه لم يخلق الا لأبى نواس خاصة ، ولا عمل له الا أن يرضى أبا نواس ولو خالف مهمة حياته وهى الاغراء بالمعاصى والذنوب

فمن مهمة ابليس أن يغرى الناس بشرب الخمر ما استطاع ، ولكنه مطالب عند أبى نواس بأن يكف عنها عذاله ومن يترفع عن مشابهتهم اياه فى تعاطيها ..

ناديت ابليس ثم قلت له لا تسق هذا الشراب عذالى

وابليس فى صورته عند أبى نواس تياه خبيث

عجبت من ابليس فى تيهه وخبث ما أظهر من نيته

وهو فى صورته عنده عليم فقيه يستنبئه فيفتيه ..

انى قصدت الى فقيه عالم
متنسك حبر من الأحبار
متعمق فى دينه متفقه
متبصر فى العلم والأخبار

قلت النبيذ تحله فأجاب لا
الا عقارا(١) ترتمي بشرار
قلت : السماع فما علمت أجابني
الا بخفق العود والزمار
قلت : المنادم من يكون ؟ أجابني
لا تعدلن عن ماجن عيار
قلت : الصلاة فقال فرض واجب
صل الصلاة وبت حليف عقار
أجمع عليك صلاة حول كامل
من فرض ليل فاقضه بنهار
قلت الصيام فقال لى : لاتنوه
واشدد عرى الافطار بالافطار

الى أشباه هذه الفتاوى الابليسية

وهو عنده ظريف يعينه على فساده :

لم يرض ابليس الظريف فعالنا
حتى أعان فسادنا بفساد

ولكنه فى كل أولئك ابليس خاص بأبى نواس ، يخدمه على الطلب ويؤثره بالخدمة ويذلل له من يعصيه ..

فرده الشيخ عن صعوبته
وصار قوادنا ولم يزل

وكأنما خلق ابليس لأبى نواس على تفصيل « المزاج النرجسى » الذى يتدلل ويتأبى ولا يملك ابليس الا أن يجاريه فى دلاله وتأبيه

وليستحضر القارىء صورة طفل مدلل يسوم أبويه ما يرضيه وما يغضبه ففى أية صورة يتمثله ؟

انه اذا شاء أن يهدد أبويه أنذرهم لا يأكلن الطعام ولا يشربن الدواء ولا يدخلن الحمام حتى يرى مايشتهيه بين يديه وانه ليسوق الحران

(١) عقارا : العقار بالضم الخمرة لانها تعاقر الذهن أي تلازمه .

أحيانا فيرفض كل شيء ويلوى وجهه عن كل سلوى

أليس هذا هو أبا نواس بعينه حين يهدد ابليس وينذره :

ان انت لم تلـق لى المودة فى
صـــدر حبيبى وأنت مقتدر
لا قلت شعرا ولا سـمعت غنا
ولا جرى فى مفاصلى السكر
ولا أزال القرآن أدرســـه
أروح فى درســه وأبتـكر

أليس هذا هو أبا نواس بعينه وهو يزعم التوبة ويتجنى على ابليس فيأبى كل مايبذله له من شهوة ومتاع :

هل لك فى عذراء مســكورة
يزينها صـــدر لها فخم
ووارد جثـــل على متنهـــا
أســـود يحكى لونه الـكرم
فقلت « لا » قال فتى أمـرد
يرتج منـــه كفـل فعـــم
كأنه عـــذراء فى خـــدرها
وليس فى لبتـــه نظـــم
فقلت « لا » قال فتى مســمع
يحسن منـــه النقـر والنغم
فقلت « لا » قال ففى كل مــا
شــابه ما قلت لك الحـزم
ما أنا بالآيس من عـــودة
منـك على رغمك يا فـدم[1] !

وينم أبو نواس على أخفى الخفايا بين جوانحـه حين يعجب من تيه ابليس على آدم ثم خدمته لشهوات أبنائه ، أو بعبارة أخرى لشهوة ابنه

(١) فدم : الفدم القليل الفهم .

أبى نواس خاصة :

عجبت من ابليس فى تيهـــه
وخبث ما أظهـر من نيتـــه
تاه على آدم فى ســـجدة
وصـــار قوادا لذريتـــه

أو على الأصح أنه قد صار قوادا « خصوصيا » لأبى نواس

فرده الشيخ عن صعوبته وصـــار قوادنا ولم يزل

فمن هنا ننتهى الى عقدة العقد فى طوية الشاعر ، وقد أسلفنا أن مثله لايتعرض كثيرا للعقد النفســية لأنه يبوح برذائله ولا يكتم أقبحهـا وأفضحها فلا سبيل للعقد النفسية الى طويته من قبل هذه الرذائل ، ولكن مشكلة النسب المدخول هى العقدة التى غلبته فكانت من دوافعه الى ادمان الخمر ومن بواعث الاحتيال عليها بالحيل الملتوية التى يصطنعها « مركب النقص » فى أمثال هذه المشكلة

فبماذا يفخر الفاخرون بالآباء من الآدميين قاطبة أكثر من أنهم أبنـاء آدم ؟... ومع هذا يتيه ابليس على آدم ولا يتيه على ابنه « أبى نواس » خاصة حين يخدمه ويكاد يفرغ لخدمته قبل سواه

بل مع هذا يأبى ابليس أن يسجد لآدم ولا يأبى أن يسجد للحســن ابن هانىء ! .. كما جاء فى حديث والبة : « ترى غلامك الحسن بن هانىء؟ قلت ما شأنه ؟ قال . ان له لشأنا ، فوالله لأغوين به أمة محمد ، ثم لا أرضى حتى ألقى محبته فى قلوب المرائين من أمته وقلوب العاشقين لحلاوة شعره قال والبة : فعملت أنه ابليس ، فقلت : فما عندك ؟ قال عصيت ربى فى سجدة فأهلكنى ، ولو أمرنى أن أسجد لهذا ألف سجدة لسجدت » ..

ورواية القصة على هذا النسق اليق رواياتها بسياقها ، وسواء كان والبة قد أوحاها الى غلامه او كان غلامه قد اوحاها اليه لقد رسخت فى ذهن الغلام وأعجبته وارتفعت به هواجس أحـلامه وأمانيه الى الغـاية

القصوى من الفخر بالآباء ، وهل بعد آدم غاية يرتفع اليها أبناء : آدم وحواء ؟ ..

الشيطان ومذهب فرويد

ويدعونا الكلام عن الشيطان وعقدة الأب أو النسب الى استطراد فى مذهب « فرويد » حول هذا الموضوع ، يدور على قصة مصور من أبناء القرن السابع عشر فقد أباه وحالف الشيطان ودفعته الى هذه المحالفة الشيطانية تلك العقدة النفسية التى يسميها فرويد بعقدة أوديب ، ويقول فى شرحها إنها عقدة تتولد من حب الطفل لأمه وغيرته عليها من أبيه ، ويكاد فرويد يزج بهذه العقدة فى تعليل التاريخ الانسانى من أوله غير قانع باستخدامها فى تعليل المسائل الفردية والأزمات الوجدانية التى تعترى هذا وذاك من حين الى حين

وعقدة أوديب فى رأينا لا تؤخذ جملة ولا ترفض جملة .. اذ ليست كل غيرة على الأب غيرة جنسية ، وبخاصة حين تكون الأم هى كل شىء فى حياة الطفل الرضيع فيغار عليها غيرة على حظوته وغيرة على طعامه وغيرة على سلامته وغيرة على كل شىء يحسه ويدركه ، وقد رأينا كلابا تغار من كل شىء يعنى به صاحبها ومن كل أحد يدلله أمامها ، ولا تختلف هذه الغيرة باختلاف الذكورة والأنوثة ولا باختلاف الحياة والجماد ، واذا كان الجنس يفسر كل شىء على رأى فرويد فهو لايفسر شيئا على الاطلاق ولا يميز لنا بين دافع ودافع من دوافع الحياة

ومن ضعف مذهب فرويد فى هذه النقطة أنه يفترض حينا أن الطفل الذكر يغار من أبيه على أمه ويفترض حينا آخر أنه يغار من أمه على أبيه ويحب أن يستأثر بالأب استئثارا جنسيا كاستئثار الزوجة بالزوج ، ثم لا ينجح أقل نجاح فى التفرقة البيولوجية « الحيوية » أو النفسيه بين الطفل الذى يغار من أبيه على أمه والطفل الذى يغار من أمه على أبيه

وهذا الشطط فى تعليلات فرويد وتخريجاته يعيبه عليه تلاميذه قبل

العلماء المعارضين له في أساس مذهبه فيرى أدلر Adler أن عقدة أوديب ليست غريزة أساسية تستقر في الوعي الباطن لكل وليد ، وانما هي ميل عارض يحدثه سوء التصرف من بعض الآباء وبعض الأمهات . ويرى ينج Jung ان الطفل لا يدرك في أمه صفة جنسية وأن « عقدة أوديب » انما تستحكم عند مفارقة الفتى لبيت الأسرة الذى عاش فيه بين أبويه فان لم تشغله في هذه الآونة وشيجة[1] زوجية لجت به علاقته بالبيت ولم يستطع أن يغفل عن الفارق بين جو الأسرة بحنانه وعطفه وجو العالم الخارجي بقسوته وعنفه ، ودارت نفسه حول شعوره بأمه أو شعوره بأبيه . وقد وضع « ينج » عقدة « الكترا » Electra الى جانب عقدة « أوديب » خلال تفسيره لما يشاهد من ميل البنات الى الآباء وميل البنين الى الأمهات

أما سليفان Sullivan فلعله أكثرهم توفيقا في تفسيره لحب البنات للآباء وحب البنين للامهات . فانه يرد ذلك الى سلوك كل من الأبوين نحو الطفل المخالف لجنسه . فالأب لا يتدخل مع بناته في الخصوصيات والأم لا تتدخل مع أبنائها الذكور فيما يقابل هذه الخصوصيات عندهم ويؤدي هذا الى استخفاف البنات لوطأة الآباء وشعورهن بالأمان معهم ، كما يؤدي الى استخفاف البنين لوطأة الأمهات وشعورهم بالأمان معهن ، واذا شاب هذا الشعور مس خفيف من النظرة الجنسية فهو عارض لا يتعمق الى مكمن الغرائز في باطن كل انسان

فعقدة أوديب قابلة للتفسير بتخريجات كثيرة غير العاطفة الجنسية وهي في القصة التي نسرد خلاصتها صالحة للمقارنة بين بطلها وبين أبي نواس ، لأنها تشتمل على عقدة الأب ومحالفة الشيطان وبطلها فنان يتعاطى الخمر ويكثر منها أحيانا فتتجسم أمامه الرؤى والأشباح

تناول فرويد موضوع هذه القصة في تقرير مفصل كتبه سنة ١٩٢٣ وبناه على وثيقة مأخوذة من دار المحفوظات الامبراطورية بمدينة فيينا فحواها ان المصور كريستوف هايتزمان من أهالي بافاريا عاهد الشيطان

---

(١) وشيجة : علاقة ، رابطة .

وكتب معه عقدا موقعا بالمداد الأسود ثم عقدا موقعا بالدم على أن يبيعه روحه ويسعد بموته . وحدث ذات يوم (٢٩ أغسطس سنة ١٦٧٧) أن هذا المصور كان يصلي في الكنيسة فسقط مصروعا وجيء به الى الأسقف فاعترف له بتلك المعاهدة وتوسل اليه أن يسأل السيدة العذراء أن تعتقه من أوهاق[1] الرجيم وتسترد منه الوثيقة التي تسلط بها عليه . ثم رأى المصور بعد فترة قضاها في التوبة والتكفير ان الشيطان جاءه بوثيقة الدم وحفظ عنده وثيقة المداد الأسود ، فشفي من داء الصرع برهة ثم عاودته النوبات وتمثلت له في خلالها الأطياف المقدسة من عليين ، ووقع في روعه أنها لا ترضى عنه مابقيت في حوزة الرجيم تلك الوثيقة السوداء

ويستدل من الأوراق المحفوظة على سر هذه المعاهدة ، وهو حالة اليأس والهبوط التي استولت على الفتى بعد فقد أبيه فحرمته لذة الاقبال على العيش ، ثم حرمته فوق ذلك قدرته على اتقان فنه فاضطربت موارد رزقه وغامت على عقله غيمة الخوف والتشاؤم ، وظهر له الشيطان في إبان هذه الأزمة .. فساومه على روحه ، وأطمعه في رد كل مافقده من بشاشة العيش وبراعة الفن ، فانقاد له ولكنه رفض ما عرضه عليه الشيطان من العلم بطلاسم السحر والمتعة بالمسرات والأموال ولم يطلب منه الا طلبة واحدة ، وهي أن يكون ابن جسده وأن يندمج فيه روحا وبدنا ، بعد تسع سنين وأن يحل في خلال هذه السنوات التسع محل أبيه ..

وللقصة حواش متفرعة لخصها فرويد في رسالته وعلق عليها فكان موفقا في جوهر تعليقاته ..

قال ان عجز المصور عن اتقان فنه بعد وفاة أبيه ان هو الا طاعة مرجأة Deferred obedience لأن أباه كان ينهاه عن الاحتراف بهذا الفن فعصيه أثناء حياته وغام عليه تبكيت الضمير بعد موته ففر من هذا الفن وعزفت منه نفسه وتعذر عليه اتقان صوره . فكسدت سوقه وبارت

---

(١) أوهاق : جمع وهق : وهو حبل فيه أنشوطة تؤخذ به الدابة .

تجارته وثقلت عليه أعباء العيش وتبكيت الضمير فساورته الأوهام وود الخلاص . وهو يؤمن كغيره من أبناء القرون الوسطى بقدرة الشيطان على السحر والطب ، فخيل اليه الوسواس أنه عاقده واعتمد على سنده ، وشخصه فى صورة أبيه الذى يحنو عليه ويرعاه

قال فرويد ما فحواه : إن شعور الابن بأبيه ــ ولا سيما الابن المختبل كهذا المصور ــ هو شعور مزدوج متقابل Ambivalent يريه أباه فى صورة الحامى المودود وفى صورة العائق المخيف معا ، فهى صورة تلتبس فى باطن السريرة بصورة الشيطان المقتدر المرهوب ، وما كان الشيطان عند ذلك المصور الا بديلا من أبيه لا يبغى منه الا الحماية والانقاذ

والقصة فى جملتها تغرى بالمقارنة بين هذا المصور وأبى نواس ، فكلاهما فنان وكلاهما يعاقر الخمر وكلاهما يحالف الشيطان على نهجه ..

والاغراء بالمقارنة يأتى من أوجه الشبه ومن أوجه الاختلاف بين « الشخصيتين » ..

فأبو نواس لا يشعر بالكبت فلم يصبه الخبل ، ولا يثقل عليه نهى أبيه عن مزاولة فنه ، فلم يعجز عن قرض الشعر فى حياة أبيه ولا بعد موته

الا أن الواضح من سيرة أبى نواس أن الشيطان كان بديلا عنده من المعلم لا من الأب . وكان كل من معلميه الذين طالت عشرتهم له فى صباه فاسقا شاذا يتخذ معه شكل الشيطان فى تعليمه اياه الفجور والانقياد للشهوات ، فوالبة بن الحباب معلمه الشعر زنديق ماجن ، وبدر الجهمى البراء معلمه العطارة على هذه الخليقة من الفجور والمجون ، وقد تقدم فى الفصل السابق أن التلميذ النرجسى يتوق الى أستاذ يكون عنده بمثابة العزيز المدلل Pet ويتطلع الى مكانة خاصة لديه فهذا الشيطان الذى كان أبو نواس يسميه شيخه هو بديل الأستاذ حين شب عن طوق التتلمذ على والبة الشاعر وبدر العطار

ولو كان أبو نواس يعاقد الشيطان سرا لاختبله الوسواس الذى اختبل

المصور وأوقع فى روعه أنه هالك مابقى فى يد الشيطان ذلك العقد الموقع بالمداد الأسود وذلك العقد الموقع بالدم ولكن أبا نواس كان يحـالف الشيطان ويجهر بمحالفته وكان يلعنه ويحسب أن اللعنة هى التحيـة المحببة اليه فسلم من الخبل بالعلانية وان لم يسلم من كل عقدة نفسية تتعلق بالنسب كما سنرى فى بيان العقدة التى ألجأته الى ادمان السكر وانهيام بالخمر هيام المتهوس المفتون

أبو نواس والخمر

نكرر هنا أن طبيعة أبى نواس لم تكن من الطبائع التى تتسلل اليهـا العقد النفسية ، لأنه كان يبوح برذائله ويتكشف بها ويتعمد أن يجبه الناس بها علانية ، وانما تكمن العقدة النفسية فى طوية الانسان أو تتسلل اليها من الكبت وطول الكتمان

الا عقدة واحدة هى الاستثناء لهذه القاعدة ، وهى عقدة الادمان .. فقد كان ادمانه الخمر هوسا ولم يكن مجرد عادة أو لذة ذوقية ، ولابد وراء كل هوس من عقدة نفسية

فما هى هذه العقدة التى أصابت نفسا محصنة من العقد فغلبتها ولم تفلح فيها اباحته ولا العلانية التى عاش فيها من طفولته الى ختام عمره

انها غلبته لأنها جاءته من قبل طبيعته ، ونعنى بها الطبيعة النرجسية ..

فهى الطبيعة التى تزين للنرجسى عادات العرض والظهور ، وهذه العقدة النفسية ليست مما يتقبل العرض والظهور ، لأنها مهينة لصاحبها مذلة له بين قومه ، وهى خسة النسب فى عصر الأنساب والأحساب

وربما خطر لبعضهم أن انسانا مثل أبى نواس فى مجونه واستخفافه لا يعيى بمثل هذه العقدة ولا يتحرج منها وهو لم يتحرج قط من منكر أو رذيلة . لكنه عند النظر اليه خاطر خاطىء لا يثبت على التأمل والمراجعة فان احتمال الهوان يهدم النرجسى ولا يبقى له بقية يعتصم بها ، وأما احتمال الملام والنقد فقد يجارى طبيعته اذا كان فيه معنى التحدى ولفت الأنظار . وقد يهزأ النرجسى بالملام والنقد مع علمه برياء اللائمين وتذبذب الناقدين واعتقاده أنهم مثله فى الفجور وان خالفوه فى الظهور

وينبغي أن نعرف قوة هذه العقدة النفسية فى زمان أبى نواس خاصة قبل أن نعرف السر فى غلبتها عليه وعلاجه لها بادمان السكر والتهافت على عشرة الندماء ..

فالعصر الذى عاش فيه أبو نواس كان معترك الانساب والاحساب بين كل انسان وكل انسان فى الدولة الاسلامية

هب فيه الشعوبيون يفاخرون العرب ولا يعترفون لهم بفضل غير فضل النبوة ، ثم يغمزون فضلهم هذا بتعييرهم بما جنوه على عترة النبى عليه السلام ومفاخرتهم اياهم بانتصارهم لتلك العترة وتشيعهم لآل البيت من العلويين والعباسيين ، ولم يزل هؤلاء الشعوبيون يفخرون على العرب بالحضارة والصناعة والترف والكياسة حتى قال قائلهم : « لا يفلح العربى الا ومعه نبى يوحى اليه ! »

والعرب أنفسهم كانوا فيما بينهم يتنازعون الفخار بين قحطان وعدنان أو بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، وكانت كل قبيلة من القحطانية تفاخر القبائل الأخرى بالكثرة والعزة وسوابق التاريخ ومكارم الآباء والابطال ، وكذلك كانت تفعل كل قبيلة من قبائل العدنانيين

بل كان أبناء البيت النبوى العلويين والعباسيين يتنافسون على شرف النسب ويرى أبناء العباس لاخوتهم شرفا لا يرونه لأبناء على ، لأن العباس عم وعليا ابن عم . فيقابلهم أبناء على بالانتماء الى فاطمة الزهراء ، وهى بنت النبى عليه السلام

وتكاد لا تسمع بأحد فى ذلك العصر الا سمعت حوله بفخر نسبه أو بمنازعة له عليه ، ولا استثناء فى ذلك للخلعاء المتبذلين بل لعلهم أحرص على دعوى النسب من غيرهم على سبيل التعويض والعزاء

فهذا والبة بن الحباب أستاذ أبى نواس لم يهبط أحد الى حضيض المهانة والزراية كما هبط بين سواد الناس وبين زملائه من الشعراء والأدباء ، وكان مع هذا يستطيل عليهم بنسبه العربى ويدعو شاعرا كأبى العتاهية الى هجوه وانكار نسبه والنزول به الى طبقته ، أى طبقة

الموالى المعترفين بحرمانهم من عراقة النسب ومن الأصالة العربية ، فيقول له فيما قال :

وابن الحباب صليبة (١) زعموا ومن المحال صليبة أشقر

ويقول :

هلم الى الموالى الصيد فى سعة وفى رحب
فأنت بنا — لعمر الله — أشبه منك بالعرب

وقد تلخص هذا الشغل الشاغل بالنسب فى ذلك العصر حقيقة مشهورة فى علم الأنساب ، وهى ظهور أول كتاب عن الانساب فى تلك الفترة لامام النسابين ابن الكلبى صاحب جمهرة الانساب المتوفى حوالى سنة خمس ومائتين للهجرة ، وقد ظهر فى مدينة الكوفة وهى من بيئات أبى نواس

ذلك هو مبلغ شغلان العصر بالنسب وهو المهم فى هذا الصدد لأنه هو مقياس قوة العرف فى هذه المسألة التى تمتحن بها طبيعة أبى نواس ، وكلها تشوف الى العرض والظهور

أما مبلغ شغلان أبى نواس بها فهو من التواتر والتواطؤ بين الشواهد والاعراض بحيث تكفى فيه الاشارة دون الاسهاب

فلا خفاء بلهفة أبى نواس على النسب العربى يتلمسه تارة فى هذه القبيلة وتارة فى غيرها من اليمانية أو النزارية حيثما اتفق مقامه وتفتحت له أبواب الدعوى والانتماء ، وما كان هو يكره أن يفخر فى الحانات بالنسب لو سلم له هذا الفخر بين أربابه المسلم لهم بحقه ، فمن شعره فى الخمريات ذلك الحوار الذى دار بينه وبين الخمار يسأله عن نسبه ويجيبه :

وخمار طرقت بلا دليل سوى ريح العتيق الخسروانى
فقام الى مذعورا يلبى وجوف الليل مثل الطيلسان
وقال : أمن تميم ؟ قلت كلا ولكنى من الحى اليمانى

وأشد من ذلك ابانة عن هذه اللهفة المطوية فى قرارة نفسه أنه كان

---

(١) صليبة أى عربى قح

يهجو فلا يقع على هجاء لأحد أقبح من الأصل الخسيس كما قال للرقاشي :

والله لو كنت جريرا لما   كنت بأهجى لك من أصلكا

وكما قال للهيثم بن عدى :

الحمد لله هذا أعجب العجب   الهيثم بن عدى صار فى العرب

وأدق منه فى الابانة عن طوية الشاعر قوله لحمدان بن زكريا :

ما أنت بالحر فتلحى[١] ولا   بالعبد نستعتبه بالعصا

فرحمة الله على آدم   رحمة من عم ومن خصصا

وموضع الدقة الذى نعنيه هنا وثوبه بالنسب الى أبى الآباء آدم ، وهو الذى أعجب الشاعر لأن ابليس يتيه عليه ولا يتيه على ذريته ، وداخله الوهم أن إبليس قد أبى له السجود ولا يأبى السجود لابنه أبى نواس ألف سجدة

وربما كان أشد من ذلك ابانة عن لهفته على النسب أنه يمدح خليفة يتسع للشاعر مجال تعظيمه وتمييزه بالصولة والنعمة والسجايا والسمات ما صدق منها وما كذب فلا يرى مدحا له أبلغ من نسبه :

أبوك الذى لم يملك الأرض مثله   وعمك موسى الصفوة المتخير

وجدك مهدى الهدى وشقيقه   أبو أمك الأدنى أبو الفضل جعفر

ومن مثل منصوريك منصور هاشم   ومنصور قحطان اذا عد مفخر

فمن ذا الذى يرمى بسهميك فى العلا   وعبد مناف والداك وحمير

وفى مقطوعة غير هذه يقول فى هذا المعنى :

رضينا بالأمين عن الزمان   فأضحى الملك معمور المغانى

تمنينا على الأيام شيئا   فقد بلغننا تلك الأمانى

بأزهر من بنى المنصور تنمى   اليه ولادتان له اثنتان

وليس كجدتيه أم موسى   اذا نسبت ولا كالخيزران

له عبد الميدان وذو رعين   كلا خاليه منتخب يمانى

فمن يجحد بك النعمى فانى   بشكرى الدهر مرتهن اللسان

---

(١) تلحى : لحى الرجل صاحبه لامه وسبه وعابه . والله فلانا قبحه .

وتنطوى هذه اللهفة فى نفس انسان لم تكن المهانة هينة عليه بل كان تياها بطبيعته « النرجسية »

لقد زادنى تيها على الناس اننى أرانى أغناهم وان كنت ذا عسر

وكان يهتبل[1] الفرصة للتعالى على الذين يتعالون عليه فكان يجلس حيث جلس ويتلقى التحية من القادة والرؤساء فلا ينهض لواحد منهم . ولم ينهض لأحد حياه غير أبى العتاهية .. وفى هذا أيضا دلالة على دخيلة نفسه من هذا الجانب . ! فقد كان أبو العتاهية من الموالى وكان فى شبابه على زى المخنثين وكان هو معاصره الوحيد من الشعراء الذى صافاه ولم يقاطعه أو يترفع عنه ونكاد نرى أن انتماءه الى والبة فى صباه انما كان لدخيلة كهذه الدخيلة . فان والبة كان مطعونا فى نسبه وكان أبيض كأبى نواس ــ أو أشد بياضا ــ وأبوه أسود كأنه زرزر[2] كما قال أبو العتاهية :

مالى رأيت أباك أسود غر بيب القذال كأنه زرزر
وكأن وجهك حمرة رئة وكأن رأسك طائر أصفر

وقد تناقصت علاقة الشاعرين بوالبة فأبو العتاهية يهجوه لأنه مثله فى عقدة نفسه وأبو النواس يألفه لأنه مثله فى محاولة الخلاص من شبهة نسبه ..

ونعتقد أن أبا نواس انما تشبث بالكنية وترك اسم أبيه فرارا من هذا السبب المدخول . فهى مناط الدعوى عنده ولم يكن نسبه الصحيح الا مسية له من السفلة والعلية على السواء

كانت الجارية عنان تريد النكاية به فتذكر له اسم أمه جلبان ، وكان الخليفة الأمين يسبه فيذكر له اسمها الآخر « شحمة » وكان أبان ومن لف لفه من الشعراء يهجونه فيسمون أباه « هنيا » أو النساج المتستر على حريمه وما شاكل ذلك من المثالب التى كان يعيى الجواب عنها على تعجله بالهجاء حين يشاء . فلا جرم تساوره العقدة فلا يجد لها حلا فى غير الادمان

(١) يهتبل : يغتنم الفرصة . (٢) زرزر : أو الزرزور طائر مرقط من نوع العصفور .

لماذا يشرب الخمر ؟

وللمؤرخ النفسي أن يكتفي بما تقدم للابانة عن شدة اهتمام العصر بالنسب وشدة اهتمام أبي نواس به في عشرته لكل طبقة من طبقات المجتمع الذي احتواه . الا أننا نرى على الدوام أن ديوان الشاعر أصدق ترجمة لحياته الباطنية ، ويصدق هذا على أبي نواس كما يصدق على سائر الشعراء المطبوعين وهو أصدق ما يكون على خمرياته التي تفيض بدلائل العقدة النفسية ومركب النقص الذي يساوره من انتسابه الى كل من أبويه

فهو يشرب الخمر لأنها شراب الملوك أو الشراب العريق الذي عاش مع أجداد الأكاسرة والقياصرة وقبل مدار النجوم

تحيرت والنجـوم وقف لم يتمكن بهـا المدار

وهو يستريح الى شربها حيث لا فخار بالآباء والأجداد بين الندامى الذين يهابونه ويتذللون بين يديه

واذا أنادم عصبـة عربيـة بدرت الى ذكر الفخار تميم
وبنو الأعاجم لا أحاذر منهم شرا فمنطق شربهم مذموم
وجميعهم لي حين أقعد بينهم بتـذلل وتهيب موسـوم

وجنونه المتسلط عليه أن يفتتح كل خمرية أو يتخللها بالنعى على الطلول والرسوم ومن يذكر الطلول والرسوم ، ومن ذاك مالا نحصيه :

لتلك أبكي ولا أبكي لمنزلة كانت تحل بها هند وأسماء
حاشا لدرة أن تبنى الخيام لها وأن تروح عليها الابل والشاء
له بكيت كما يبكي النوى رجل على المعالم والاطلال بكاء

ومنه :

أعرض عن الربع ان مررت به واشرب من الخمر أنت أصفاها

ومنه :

أيا باكي الاطلال غيرها البـلى بكيت بعين لايجف لهـا غرب(١)

---

(١) غرب : الدمع حين يخرج من العين .

ومنه :

دع الاطلال تسقيها الجنوب وتبكى عهد جدتها الخطوب
وخل لراكب الوجناء[١] أرضا تحث بها النجيبة والنجيب
ولا تأخذ عن الاعراب أرضا ولا عيشا فعيشهم جـديب
فأين البدو من ايوان كسرى وأين من الميـادين الدروب

ومنه :

دع الربع ما للربع فيك نصيب وما أن سبتنى زينب وكعوب
ولكن سبتنى البـابلية أنهـا لمثلى وان طال الزمان سلوب

ومنه :

عـد عن رسـم وعن كثب[٢] واله عنـه بابنـة العنب

ومنه :

يا أيها العـاذل دع ملحـاتى والوصف للمـوماة[٣] والفلاة

ومنه :

سـقيا لغير العلياء فالسـند وغير اطـلال مى بالجـرد

ومنه :

لا تبـك رسما بجانب السند ولا تجـد للدموع بالجـرد

وبيت القصيد من هذا الهوس بالنعى على الرسوم والطلول انما هو الازدراء بأهلها وبعيشهم وفخارهم الذى عز عليه أن يجاريهم فيه ، والاشادة بالخمر التى لا يدرك الكفاءة لها كل شارب ، ولا يسمو الشاربون لها الى مثل شمائل أبى نواس

عاج الشـقى على رسم يسـائله وعجت أسأل عن خمـارة البـلد
يبكى على طلل الماضين من أسـد لادر درك قل لى من بنو أسد ؟
ومن تميم ومن قيس ولفهمـا ؟ ليس الأعاريب عند الله من أحد

نعم كل الأعاريب من شمال أو جنوب ، وما يفخرون به من حسب حسيب وعيش جديب !

وأحيانا ينقل هذه النفرة من مفاخر القبائل والأنساب الى لسان الخمار

(١) الوجناء : الناقة الشديدة الصلبة ٠ (٢) كثب : جمع كثيب وهو التل من الرمل ٠ (٣) الموماة : الفلاة الواسعة ٠

الذى يقصد اليه :

فقلت له ما الاسم قال سموأل ... على أننى آكنى بعمرو ولا عمرا
وما شرفتنى كنية عربية ... ولا ألبستنى لا ثناء ولا فخرا

لا جرم تصبح المنادمة قرابة تغنى عن قرابة النسب بين أناس لايتفاخرون ولا يتعاظمون :

فذلك ما حييت له وانى ... أبر بمثله من والديه
ورابعها فللندمان حق ... سوى حق القرابة والجوار

***

ولم يخف على أحد من أبناء عصره ما كان يعنيه بالانحاء على الطلول وباللجاجة فى هذا الانحاء ، ولم يكن هو يخفى مقصده منه وهو يتبعه بالانحاء على الاعراب من كل قبيل ، ويقابل بين الخيام وايوان كسرى ، وبين الدروب والميادين ، فلهذا نهاه الخليفة عن الاستمرار فى هذه اللجاجة وأمره بوصف الطلول فقال :

دعانى الى وصف الطلول مسلط ... لقد ضقت ذرعا أن أجوز له أمرا

فليس اللهج بالنعى على الطلول دعوة الى الجديد كما يتراءى من النظرة السطحية الى ظاهر العبارة . ولم يأمره الخليفة بالكف عنه لأنه تجديد ينكره ، ولكنه فهمه على معناه الذى لا يفهم على سواء من هذا التهوس بتحقير الاطلال وأهل الاطلال ، وخشى منه مغبته بين القبائل المتحفزة فى تلك الآونة ، فنهاه عنه نهيا عن هجاء سياسى لا تحمد عقباه ..

وبعد فهل كان أبو نواس يتجنب بكاء الاطلال ايثارا للتجديد أو ايثارا لمذهب كائنا ما كان من المذاهب الفنية ؟ كلا . فانه لم يدع الى تجنبها الا ليستطرد من ذلك الى النعى على أهلها ومفاخر أنسابها .. والا فمطالعه فى بكاء الاطلال والديار تزيد على مطالع الشعراء من معاصريه أو المتقدمين عليه ، وهذه بعض تلك المطالع المتكررة

قال فى أحدها :

هل عرفت الربع أجلى ... أهله عنه فزالا

وقال فى مطلع آخر :

ألا حى أطـلال الرسوم الطواسما[١] عفت غير صـقع كالحمام جواثما

وفى مطلع آخر :

لمن طلل لم أشـجه وشـجانى وهاج الهوى أو هاجه لأوان

وفى مطلع آخر :

ألالاأرى مثلى أمترى[٢] اليوم فى رسم تعـرفه عينى ويلفظـه وهمى

وفى مطلع آخر :

لمن الديار تسربلت ببـلاها نسيتك ربتها وما تنسـاها

وفى مطلع آخر :

هـل لديار حبيبتهـا درس من صمم ماهتفت أو خرس

وفى مطلع آخر :

غننا بالطلول كيف بلينـا واسقنا نعطك الثناء الثمينا

وفى مطلع آخر :

الا حى أطلالا بسيحان فالعذب الى برع فالبئر بئر أبى زغب

وفى مطلع آخر :

ألم تربع على الطلل الطماس[٣] عفاه كل سحم[٤] ذى ارتجاس ؟

فالأطلال لا تهمه اذن الا ليستطرد منها الى عقدته والى التنفيس عنها بالخمر كلما برمت بمفاخر النسب من تميم ومن قيس ومن أسد .. وليس الاعاريب جميعا عند الله من أحد

ومنادمة الخمر هى « الوجاهة » التى يسمو بهـا الشاعر على النظراء وهى التى تنفث فيه الزهو والفخار بدلا من زهو السادة الاصلاء وفخار الأبناء والآباء ..

نوبات السآمة

وثمة خلة أخرى من خلال الطبيعة النرجسية تعرضها لادمان الخمر وما اليها من عقاقير التخدير ، وتلك هى نوبات السآمة التى تعاود النرجسى

(١) الطواسم : المدروسة المنطمسة • (٢) امترى : شك • (٣) الطماس : المندرس الذي أمحى أثره • (٤) سحم : أسود •

كلما خلا الى نفسه وفرغ من العمل ، ان كان له عمل يشغله

فالوقت ثقيل على الطبيعة النرجسية تدفعه بكل ماتستطيع من الشواغل والملاهى ، وعواطفها الموكلة بشيء واحد — وهو عشق الذات — لاتزال أبدا فى حاجة ملحة الى التنبيه والاستثارة

وقد يتصف النرجسى بدقة الحس أو رقة العاطفة وخفة الشعور ولكنه محروم من تلك الدوافع الحيوية المتدفقة وتلك الطبائع العميقة التى تستجيش النفس أبدا بما يشغلها ويجدد نشاطها ويوثق روابطها بالعالم وما فيه . فاذا ترك النرجسى لنفسه لم يجد فيها ما يملأ فراغه كله ولم يزل متلمسا للفرجة والتسلية والنشوة التى تلهيه وترضيه عن ذاته وتجدد لها أشواقها فيما يعنيها من فتنتها وغوايتها

ومن ثم يتسرب حب الخمر الى الطبائع النرجسية ، فاذا اعانتها بواعث أخرى من غواية الطبع أو البيئة تمادى بها حب الخمر الى الادمان والاصرار عليه ..

ويلاحظ فى خمريات أبى نواس هذا الولع بكل ماينبه الشعور ويدفع السآمة ويوقع فى خلده أنه مشغول بما يشغل ويثير . فهو مع السكر والسماع لاينسى أن يمثل لنا مخافة صاحب الحان وذعره وانتباهه من النوم فى وجل وريبة ، ويوشك أن يكون وصف الخوف ملازما لكل قصة من قصص السعى الى الحانات والبحث عن الجيد النفيس من الشراب . فيعجبه أن يرى الساقى بين الخوف والرجاء حيث يقول :

لما قرعت عليه الباب أوجله   وقال بين مسر الخوف والراجى

أو فزعا شديد الفزع كما قال :

فقام لدعوتى فزعا مروعا   وأسرع نحو اشعال الذبال[١]

أو ممتلئا ذعرا كما قال :

فلما قرعنا بابه هب خائفا   وبادر نحو الباب ممتلئا ذعرا

ومثله قوله :

فقام الى مذعورا يلبى   وجون[٢] الليل مثل الطيلسان

(١) الذبال : فتيل المصباح . (٢) جون : أسود .

ومثله :

ففـزع من ادلاجنـا(١) بعـد هجعـة
وليس ســوى ذى الكبرياء رقيب
تنـاوم خـوفا أن تكون ســعاية
وعـاوده بعـد الرقـاد وجيب(٢)

ومثله :

يارب صـاحب حانة قد رعته فبعثته من نومة المتزمل(٣)

وهكذا يروقه أن تستثيره الخمر وهو يسعى اليها وتستجيشـه وهو يشربها ويستمع الى ندمائها

وما هو غاية الحرمان عنده ؟ وما هو عقاب البخل على الخمرة بالمال ؟

انه لاشيء غير الشعور بطول الوقت وثقلة الملل حتى تكون الساعة كالحين ..

وأصرفنهـا عن بخيـل دان بالامسـاك دينـا
طـول الدهـر عليـه فيرى السـاعة حينـا

ولهذا نرى الشـاعر يستريح الى كر الأيام بأسمائها فى شـعره كما يستريح المسافر الملول الى عدد الفراسخ والمراحل التى خلفها وراءه ، وكثيرا مالغط قراؤه بما أراده من احصاء هذه الأيام ولا مراد له غير السرور بفواتها وعدها وهىتنقضى وتنصرم وهو يشعر بعدها «بالوجاهة النرجسية » لأنه لم يكن كذلك البخيل الذى طول الدهر عليه

ومن كلامه فى هذا الغرض ذلك البيت المشهور :

أقمنا بها يوما ويومين بعده ويوما له يوم الترحل خامس

ومنه :

تتـرك المـرء اذا مـا ذاقهـا يرخى الازارا
ويرى الجمعـة كالسبت وكالليـل النهـارا

ومنه :

---

(١) ادلاجنا : أدلج القوم : سروا من أول الليل ٠ (٢) وجيب : خفقان القلب ٠ (٣) المتزمل : تزمل الرجل بثوبه تلفف به وتدثر ٠

فلم نزل فى صباح السبت نأخذها
والليل أجمعـه حتى بدا الاحـد
ثم ابتدأنا الطـلا[1] باللهـو من أمم
فى نعمة غاب عنها الضيق والنكد
حتى بدت غرة الاثنين واضـحة
والسعد معترض ، والطالع الاسد
وفى الثـلاثاء أعملنـا المطى بها
صـهباء ما فرغتهـا بالمزاج يد
والأربعـاء كسرنا حـد سـورتها
والكأس يضحك فى تيجانها الزبد
ثم الخميس وصـلناه بليلتـه
قصـفا وتم لنا بالجمعة العـدد

ويلحق بهذا طى الشهر والشهرين بين حانات القفص وقطربل كما حدثوا فى بعض خمرياته أنه أقام بقطربل من أول يوم فى رجب الى آخر يوم فى شعبان ثم عاد ليشرب قبل أن تثبت رؤية الهلال ، ونسبوا اليه أنه قال :

لو شئت لم نبرح من القفص ... نأخذها صـفراء كالجص[2]
نسرق هذا اليوم من شهرنا ... فربمـا يعـفى عن اللص

فهذا الملل وذاك الفتور من مغرياته بالشراب وادمان المعاقرة : الا أنه ادمان حسى لايلزم منه أن يتهوس صاحبه بالخمر ذلك التهوس الذى ينم على العقد النفسية ويلعج فريسته كأنما يركبها الشـيطان فلا يدعها أو يوردها المورد الذى يبغيه

وينبغى ألا ننسى فى معرض المغريات التى سولت لأبى نواس ادمان الشراب باعثا قويا نظنه احدى هذه المغريات ظن الاحتمال والترجيح ، وذاك هو سوء العيش ونقص الغذاء وافتقار الجسم الى الحركة والتنبيه . فان أبا نواس قد عاش فى ضـنك وفاقة معظم أيامه على غير مايتوهم المتوهمون ، وكان يسمى نفسه العاشق المفلس فى بعض شعره ، ويبالغ

---

(١) الطلا : بالكسر : اللذة . (٢) الجص : بالكسر ما تطلى به البيوت من الكلس .

فيما أنفقه على الخمر أحيانا فيروى لنا أنه أنفق عليها الثمانين دينارا التى عاد بها من مصر ممتلىء الوطاب[1] بجوائز الخصيب ، وما فى كل يوم يمتلىء الوطاب هذا الامتلاء ! فاذا كانت جوائز الخصيب التى كاثر بها المكاثرون لم تخلف عليه الا هــذه الدنانير الثمانين فما الظن بأيامه الأخرى التى تفرقت بين السجن والاقصــاء وتبدل الســادات والأولياء ؟ تلك حال لايستبعد على صاحبها أن يحوجه سوء الغذاء الى استفزاز البنية بالكحل وما اليه ، كأنه بديل من الفخر بالآباء ، وبديل من السآمة والخواء

***

ونرجع الى المقابلة بين أبى نواس وأوسكار وايلد فى هذه الخلة ، خلة الادمان ، تطبيقا لما أسلفناه من أن الاختلاف بينهما يثبت المشابهة كما يثبتها الوفاق ..

فالشاعر الايرلندى لايشكو من عقدة النسب لأنه من سلالة النبلاء ، ولا يشكو من سوء الغذاء لأنه من الأغنياء ، ولا يدفع السآمة بالخمر وحدها لأنه مقتدر على السياحة والتردد على المقاصف والملاهى والتشاغل باقامة المآدب وحضورها عند من يدعونه اليها ، وليس من همه أن يتحدى الناس بالشراب ، لأن بيئة عصره لم تكن كتلك البيئة التى كان أبو نواس يتحداها حين يقول :

ألا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر
ولا تســقنى سرا اذا أمكن الجهــر

ولهذا اختلف النرجسيان فى أمر الادمان ، فكان اختلافهما أدل على الآفة المشتركة بينهما من الوفاق .

---

(١) الوطاب : جمع وطب بالفتح جلد الماعز يجعل فيه اللبن .

طبيعته الفنية

الفن وأبونواس

أحق الشعر النواسي بالدراسة النفسية ـ بعد الخمريات ـ هو شعره فى الغزليات والنسكيات ، ولكن البحث النفسى يتقاضانا قبل ذلك أن نتكلم عن طبيعة فنه على الجملة ، فاننا اذا فهمنا طبيعته الفنية لم نجد صعوبة فى فهم عاطفة الحب ونوازع العقيدة كما عبر عنها بقصائد الغزل أو القصائد الدينية ..

وصفوة مايقال فى طبيعة فنه أنه ظاهرة من ظواهر العرض الذى أشرجت[1] عليه الطبيعة النرجسية ، واذا كان الكلام عن شاعر فالعرض النرجسى والعرض الفنى تعبيران مترادفان

يواجهنا الشعر النواسى بألغاز لاتفهم حيث تتلاقى الزندقة بالنسك ويتلاحق غزل المؤنث وغزل المذكر ويمتزج الهزل والجد ، ولكننا اذا أدخلنا فى حسابنا طبيعة العرض النرجسى ومشتقاته ولوازمه لم يبق من هذه النقائض لغز يستعصى على الفهم ، وأصبحت هذه الالغاز فى كثير من المناسبات وهى المفتاح الحاضر الذى يحل كل اشكال

فالعرض الفنى هو قوام شعر أبى نواس ، لايهمه أن يتغزل أو يرثى أو ينظم فى النسك والحكمة ، وانما يهمه أن « يعرض » من طويته « دورا مسرحيا » يلفت النظر ، وكل عروضه الفنية هى مسرحيات تتميز بالموضوع ولكنها تتساوى فى صبغة واحدة : هى صبغة التمثيل

ولا نقصد بهذا أن شعره خلو من الشعور ، بل نقصد به أن العرض هو الباعث الأول عليه ، وما عدا ذلك من شعور واقعى أو شعور فنى فهو تابع من توابع الباعث الأصيل

---

(١) أشرجت : أشرج الخريطة أدخل بعض عراها ببعض . وأشرج الثوب خاطه خياطة متباعدة .

ولا يغيب عن بالنا أن الممثل المقتدر فى فنه يستوحى شعور الدور الذى يمثله من سليقته وخياله ، ولا يغيب عن بالنا الى جانب ذلك أن « التشخيص » Identification فطرة فى النفس النرجسية يبلغ من غلبتها على الحس أن يخلع الانسان شخصيته على كائن غيره ، وهو لايشعر بذلك كل الشعور فى صميم وعيه . فليس من العسير على الفطرة الفنية المطبوعة على التشخيص أن تستوحى الشعور الذى يلائم عملها الفنى وتودعه قالب الكلام المطبوع فاذا هو مطبوع

نظم هذه الأبيات فى رثاء خلف الأحمر :

لما رأيت المنون آخذة　　كل شديد ، وكل ذى ضعف
بت أعزى الفؤاد عن خلف　　وبات دمعى ان لا يقف يكف
أنسى الرزايا ميت فجعت به　　أمسى رهين التراب فى جدف(١)
وكان ممن مضى لنا خلفا　　فليس منه اذ بان من خلف

ولم يكن خلف الأحمر قد مات حين نظمها ، وسواء كان نظمها مستجيبا لاقتراح خلف على الشعراء أصحابه ، أو كان نظمها بغير اقتراح منه فأبو نواس هو الشاعر الوحيد الذى رويت له مرثاة لخلف الأحمر فى حياته ، وبقية القصة فى بعض الروايات جديرة بالشاعر فى عبثه وسخريته ، فان خلفا على ماقيل قد استحسن أبيات الرثاء فقال له تلميذه الهازل : يا أبا محرز ! مت ولك عندى خير منها ، فقال خلف : كأنك قد قصرت ؟! قال : لا . ولكن أين باعث الحزن ؟

وندع الرثاء وهو معلق بفقيد يموت ، وننظر فى شعر النسك الذى لايتوقف النظم فيه على غير الناظم ، فانما كان يطرق هذا الباب أو يدعه كأنه دور من أدوار التمثيل يأخذ منها ما يأخذ ويوزع منها بين زملائه مايحبونه وما يكرهون أن ينافسهم عليه

قال أبو مخلد الطائى : جاء أبو العتاهة الى عندى فقال لى : ان أبا نواس لا يخالفك ، وقد أحببت أن تسأله ألا يقول فى الزهد شيئا ، فانى

---

(١) أى قبر

قد تركت له المديح والهجاء والخمر والرقيق وما فيه الشعراء ، وللزهد شوقى ... فبعثت الى أبى نواس فجاء الى وأخذنا فى شأننا ، وأبو العتاهية لايشرب النبيذ معنا ، فقلت لأبى نواس : ان أبا اسحاق من قد عرفت فى جلالته وتقدمه ، وقد أحب أنك لاتقول فىالزهد شيئا ... فوجم أبو نواس عند ذلك وقال : يا أبا مخلد ! قطعت على ما كنت أحب أن أبلغه من هذا ، ولقد كنت على عزم أن أقول فيه مايتوب به كل خليع . وقد فعلت ولا أخالف أبا اسحاق فيما رغب فيه !

فمعارض الشعر اذن فى عرفه وعرف زميله أبى العتاهية أدوار توزع على حسب الحاجة الى العرض الفنى لا على حسب البواعث الصادقة من الهام السريرة ... وليس مما يفوت الناقد فى هذه القصة ان أبا العتاهية كان أثيرا عند أبى نواس وأنه دون غيره من معاصريه كان لديه فى مقام التوقير والاستجابة للرجاء ، وتلك احدى العلامات على عصبية الانحراف التى تقرب بين المنحرفين كأنها من وشائج اللحم والدم ، وقد كانت هذه العصبية على أشدها بين الشاعرين وكانت القرابة بينهما فى هوس الانحراف أشد من قرابة النسب المدخول ، ولو كان فى المقام متسع للبحث فى دخيلة أبى العتاهية لفصلنا هنا أخباره ودلائل أطواره ، ولكن قصة واحدة من قصصه تصور لنا هذه الطبيعة المضطربة بين المجون والنسك فتبدو لنا من بعض جوانبها كأنها ملامح مكبرة مؤكدة من أبى نواس ، فهما زميلان فى أكثر من زمالة ، وهذه القصة ترينا أن أبا نواس كان على حق حين قبل من أبى العتاهية أن يستأثر دونه بالزهديات

حدث مخارق المغنى قال : جاءنى أبو العتاهية فقال : قد عزمت على أن أتزود منك يوما تهبه لى ، فمتى تنشط ؟ فقلت : متى شئت . فقال : أخاف أن يقطع بى . فقلت : والله لا فعلت واذ طلبنى الخليفة . فقال : يكون ذلك فى غد ... فلما كان من غد باكرنى رسوله فجئته فأدخلنى بيتا له نظيفا فيه فرش نظيف . ثم دعا بمائدة عليها خبز سميذ وخل وبقل وملح وجدى مشوى ، فأكلنا منه ، ثم دعا بسمك مشوى فأصبنا منه حتى

اكتفينا ثم دعا بحلواء فأصبنا منهـا وغسلنا أيدينا ، وجاءونا بفـاكهة وريحان وألوان من الأنبذة فقال : اختر مايصلح لك منهـا ، فاخترت وشربت ، وصب قدحا ثم قال : غنني فى قولى :

.. أحد قال لى ولم يدر ما بى ..

فغنيته فشرب قدحا وهو يبكى أحر بكاء ، ثم قال : غننى فى قولى :

ليس لمن ليست له حيـلة ميسورة خير من الصـبر

فغنيته وهو يبكى وينشج ، ثم شرب قدحا آخر ثم قال : غننى فديتك فى قولى :

خليلى مالى لا تزال مضرتى تكون من الأقدار حتما من الحتم

فغنيته اياه ..

وما زال يقترح على كل صوت غنى به فى شعره فأغنيه ويشرب ويبكى حتى صارت العتمة . فقال : « أحب أن تصبر حتى ترى ما أصـنع » ، فجلست . فأمر ابنه وغلامه فكسر كل مابين أيدينـا من النبيذ وآلته والملاهى ، ثم أمر باخراج كل مافى بيته من النبيذ وآلته فأخرج جميعه فما زال يكسره ويصب النبيذ وهو يبكى حتى لم يبق من ذلك شىء . ثم نزع ثيابه واغتسل ، ثم لبس ثيابا بيضا من صوف ، ثم عانقنى وبكى ، ثم قال : « السلام عليك ياحبيبى وفرحى من الناس كلهم ، سلام الفـراق الذى لا لقاء بعده » وجعل يبكى ويقول : « هذا آخر العهد بك فى حالة تعاشر أهل الدنيا » فظننت أنها بعض حماقاته وانصرفت وما لقيته زمانا . ثم تشوقته فأتيته فاستأذنت عليه فأذن لى ، فدخلت فاذا هو قد أخذ قوصرتين — أى وعائين من قصب — وثقب احداهما وأدخل رأسه ويديه فيها وأقامها مقام القميص ، وثقب الأخرى وأخرج رجليه منها وأقامها مقام السراويل .. فلمـا رأيته نسيت كل ما كان عنـدى من الغم عليه والوحشة لعشرته وضحكت والله ضحكا ماضحكت مثله قط . فقال : « من أى شىء تضحك ؟ » فقلت : « سخن الله عينك ؟ هذا أى شىء هو ؟ من بلغك عنه أنه فعل مثل هذا من الأنبياء والزهاد والصحابة أو المجانين ؟!

انزع عنك هذا ياسخين العين » فكأنما أستحى منى ، ثم بلغنى انه جلس حجاما فجهدت أن أراه بتلك الحال فلم أره ، ثم مرض فبلغنى انه اشتهى أن أغنيه فأتيته عائدا فخرج الى رسوله يقول : « ان دخلت الى جددت لى حزنا وتاقت نفسى من سماعك الى ما قد غابتها عليه ، وأنا استودعك الله وأعتذر اليك من ترك الالتقاء . ثم كان آخر عهدى به »

وهذه القصة التى قصها علينا مخارق تمثل لنا نسخة من نسخ العرض المضطرب بين المجون والنسك وترينا وشيجة من وشائج القرابة فى الانحراف بين نفس أبى العتاهية ونفس أبى نواس ، وسنرى فيما بعد أن القرابة بينهما أوثق من ذلك ولا سيما في باب النسك والتوبة وأن الحكمة التى تقول لنا ان الجنون فنون أعمق وأصدق مما أراد القائلون

وبديه أن أبا نواس لم تكن به حاجة الى طبيعة العرض فى معظم الأبواب التى قال أبو العتاهية أنه ترك النظم فيها كالمديح والهجاء وما فيه الشعراء ، فهذه الأبواب قد اصطلح الناس جميعا على بداهتها وفهموا انها تدور على العطاء والمنح والمودة والجفاء فلا حاجة للشاعر الى خلق أسبابها من عنده ، ولكن بابا من الأبواب تركه أبو العتاهية وأكثر أبو نواس من النظم فيه قد كان يصدر منه عن طبيعة العرض ولا تدعوه اليه حاجة الشاعر الى الكسب أو الى التسلح بالمدح والهجاء لترغيب الأصدقاء وترهيب الأعداء ، وذلك الباب هو باب الطرد ووصف الصيد فكل بواعثه عند أبى نواس فانما هى من قبيل العرض الفنى بغير مشاركة من البواعث « المعيشية » المصطلح عليها بين معاصريها

ولا يعتمد الناقد على تعليل قصائد الطرد بطبيعة العرض لو كان أبو نواس من هواة الصيد فى غير صحبة يجاريها كما يجارى كل صحبة

وانما يكون الشعر من « العرض الفنى » حين يكون مداره على الصورة والحكاية وهكذا كان شعر أبى نواس فى قصائده الطردية على الاجمال ، فانه وان صاحب الصيادين على ما يظهر من بعض شعره ، لم يؤثر عنه انه كان يحب الطرد والصيد ذلك الحب الغلاب وانما نظم فيه

ليعرض قدرته على النظم فى هذا الباب ، فاختار أكثر طردياته من الرجز وهو وزنه التقليدى عند الشعراء ، واصطنع فيه الغريب ليحكى أمام الرجاز رؤبة بن العجاج وهو مشهور بكثرة غريبه فى أراجيزه ... فكل ما فى هذا الباب « عرض فني » تنحصر بواعثه فى هذه الرغبة ولا تعبر عن باعث نفسى غير هذا الباعث ؛ ومن اتقان العرض انه كان يتخير القوافى الفخمة العسيرة كالطاء والظاء ومن أمثلتها قوله فى وصف كلب :

أنعت كلبا جال فى رباطه ... جول مصاب فر من اسعاطه(١)
عند طبيب خاف من سياطه ... هجنا به وهاج من نشاطه
كالكوكب الدرى فى انخراطه ... عند تهاوى الشد وانبساطه
يقمم القائد فى حطاطه ... وقده البيداء فى اعتباطه (٢)
لما رأى العلهب فى أقواطه ... سابحه وقر فى التباطه (٣)
كالبرق يذرى المرو بالتقاطه ... مثل قلى طار فى انفاطه (٤)
وانصاع يتلو على قطاطه (٥) ... أغضف لا ييأس من خلاطه

الى آخر الأرجوزة على هذا المثال

ومن هذا الباب على حرف الظاء :

أعددت كلبا للطراد فظا ... اذا غدا من نهم تلظى
وجاذب المقود واستلظا ... كأن شيطانا له ألظا
يكظ أسراب الظباء كظا ... حتى تراها فرقا تشظى
يجوز منها كل يوم حظا ... حتى ترى جميعها مفتظا

(أى مفتضا معتصرا)

وقس على ذلك سائر طردياته وهى من أجود منظوماته ، وبواعثها كلها ما علمنا من حب العرض الفنى المتمكن من خليقته من ناحية الطبيعة النرجسية والهبة الفنية ، فلولا أن رؤبه قد أغرب فى رجزه ، ولولا أن

(١) اى جول مجنون يعالج بالسعوط فر من الطبيب المعالج
(٢) اى يصرع القائد ويعتبط الارض كما تعتبطها الريح اى تقشرها
(٣) العلهب ثور الوحش ، والاقواط القطعان ، والالتباط الجرى السريع
(٤) اى يقذف الحجارة كما تطير الفتات من المقلاة
(٥) على قطاطه اى على مثاله والاغضف الذى أذناه الى الوراء

الطرد ينظم فى الرجز ، ولولا أن أبا نواس قد حفظ الغريب وأحب أن يعرضه فلم يجد لعرضه بابا غير هذا الباب ، لما الح على هذا الباب ينظم فيه ويعيد النظم على السهل والصعب من قوافيه

وقد أجمع مؤرخو الأدب لعصر أبى نواس على سعة علمه بالغريب وأغرق بعضهم فى توسعة نصيبه من العلم به حتى زعم أنه لم ينظم الشعر الا بعد أن حفظ ألف أرجوزة ثم أمره استاذه خلف الأحمر بنسيانها . وأعرق هو فى مثل هذه المبالغة فقال انه لم ينظم الشعر الا بعد أن روى لأكثر من ستين شاعرة وناهيك عن الشعراء الفحول . فاذا تركنا جانب الاغراق من هذه الأقاويل فالذى يبقى ثابتا لا مبالغة فيه أنه كان وافر العلم بالغريب والأراجيز وأنه احتاج الى العرض فى هذا الباب لأنه كان فى شعره كله سهلا قليل الاغراب لايطرق الحوشى من الألفاظ الا فى الندرة النادرة . ولابد هنا من ملاحظتين على تقليد أبى نواس للاقدمين حين يكون هذا التقليد سبيلا للعرض ولفت النظر فأولى هاتين الملاحظتين أنه كان حريصا على محاكاة الأعراب فى أسلوبه ونسى هنا الازراء على جفاء الأعراب ولأن العرض فى باب الطرد لا يتأتى له مع نبذ جفاء الاعراب . والملاحظة الثانية أنه اجتنب التصرف فى مطالع الأراجيز فهى تحكى مطالع الأقدمين فى هذا الباب ومنها تكراره « أنعت كلبا » و « قد اغتدى » و « يارب » و « لما » .. وكلها مما تفتتح به الأراجيز وهو يحافظ عليها حتى حين يترك الأرجوزة الى مايشبهها من المجزوءات كما قال :

ربما أغدو مع كلبى طالبا للصيد فى صحبى

ثم يعود فى هذا الوزن الخفيف الى الاغراب فى الغريب فيقول :

فسعونا للحزيز به (١) فدفعناه على أظب
فاستدرته فدر لها يلطم الرفقين بالترب
فادراها وهى لاهية وجحيم الحاذ والغرب (٢)

---

(١) الحزيز : الارض الغليظة
(٢) الحاذ ما يحاذيك من الجنبين والغرب والظهر

ففرى جماعهـن كمـــا قد مخلولان من عصب
غـــير يعفـور أهاب به جاب دفيه عن القلب (١)
ضـم لحييـــه بمخطمه ضمك الكسرين بالشعب
واتهى للباهيات كما كسر ت فتخـاء عن (٢) لهب
فتعايى التيس حين كبـا ودنا فوه من العجب (٣)
ظل بالوعساء (٤) ينفضه أزما منـه على الصـلب
تلك لذاتى وكنـت فتى لم أقـل من لذة حبى

وقد غير هنا البحر ولم يستطع أن ينزع عن لوازم الغرض فى باب الطرد وهى الاغراب فى اللفظ . فملأ هذا البحر المستخف بالجلاميد الجافية من مفردات اللغة الوعرة لأن الغرض الأكبر هو اظهار القدرة على الاغراب ومحاكاة الاعراب ..

فالشاعر على هذا ماص مع طبيعة الغرض تملى عليه هذه الطبيعة أن ينعى على الأطلال فينعاها وتملى عليه أن يحذو حذو الأقدمين فيبالغ فى محاكاتهم وينتزع من درايته باللغة شملة بدوية لا ملاءمة بينها وبين أسلوبه حيث يلبس للحضر لبوسه ويناجى أبناءه وبناته بما يأنسون من لغة الأندية ومجالس اللذات ..

وقد سئل الشاعر عن جيده ورديئه فقال : اذا أردت أن أجد قلت مثل قصيدى : « أيها المنتاب من عفره » واذا أردت العبث قلت مثل قصيدى : « طاب الهوى لعميده » .. فأما الذى أغنى فيه وحدى وكله جد « فاذا وصفت الخمر »

وهذه رواية تشككنا فى صحتها أو تشككنا فى صواب أبى نواس حين يحكم على شعره . فان قصيدته : « طاب الهوى لعميده » ليست من شعره الردىء على كثرة الردىء منه . ولكن الصواب ــ لو كان أبو نواس ينفذ

(١) اليعفور الذى بلون العفار والدف الجنب
(٢) الفتخاء العقـاب واللهب ما بين الجبلين من هاوية
(٣) العجب آخر العمود الفقرى
(٤) الوعساء رابية من رمل

الى دخيلة طبعه ـــ أن يقول : انه يجيد حين يجمع قريحته للعرض الفنى ؛ ويسف ويهبط حين ينسى العرض ويترك قريحته فى مباذلها !

***

على أن النرجسية قد استوفت نصيبها من كل مسماها فليس التهافت على العرض كل مايجنيه الفنان من الطبيعة النرجسية ، وليس بالنادر أن يستفيد منها نفحة من لطافة الحدس وشفافية الحس تلهمه الخواطر التى تدق على الطبيعة الخشنة . وهذه المزية لم يحرمها أبو نواس ، فأفادته زكانة(١) فى كثير من طرائفه كأنها زكانة تلك اللغة الموحية التى كان يتفاهم بها مع أودائه ويعنيها بقوله :

أزور محمدا فاذا التقينا   تكلمت الضمائر فى الصدور
فأرجع لم ألمه ولم يلمنى   وقد رضى الضمير عن الضمير
أمور ليس يعرفها سوانا   يحير لطفها بصر البصير

أو يعنيها بقوله :

تجمع عينى وعينها لغة   مخالف لفظها لمعناها
اذا اقتضاها طرفى لها عدة   عرفت مردودها بفحواها

فان لم تكن طرائفه كلها من وحى هذه اللغة فمن وحيها ولا شك قسط غير يسير ..

---

(١) زكانة : الفطنة ، والظن الصائب ، والحدس .

غزل المؤنث والمذكر

الحب والغزل

قال أبو نواس فى جنان :

ما هـــوى الا له ســـبب ... يبتـــدى منـــه وينشـــعب
فتنـــت قلبى محجبـــــة ... وجههـــا بالحسن منتقب
خليت والحســـن تأخـــذه ... تنتقى منـــــه وتنتخب
فاكتســـت منــــه طرائفه ... واســـنزادت بعض ما تهب
فهى لو صـــيرت فيه لهـــا ... عودة لم يثنهـــا أرب (١)
صـــار جـــدا ما لعبت به ... رب جـــد جـــره اللعب

وقال فى عريب :

صيرنى عبـــدا لهـــا مذعنـــا ... حبى لها ، والحب شيءعجب
لو وعدتنى موعـــدا صادقا ... أو كاذبا ، بالجد أو باللعب
ظننت أنى نلت مالم ينـــل ... ذو صبوة من عجم أو عرب

وقال :

جفـــــن عينى كاد يســـ ... ـقط من طـــول ما اختلج
وفـــؤادى لحر حبـــ ... ـك والهـــم قد نضـــج
خـــبرينى فـــداك نفســ ... ـى وأهـــلى متى الفـــرج
كـــان ميعـــادنا خـــرو ... ج زياد ، وقـــد خـــرج
أنت من قتـــــل عـــائذ ... بك فى أضـــيق الحـــرج

وقال فى دنانير :

صليت من حبهـــا نارين واحـــدة ... بين الضلوع وأخرى بين أحشائى

(١) اى أنها اختارت فلم تبق ماتختار اذا عادت الى المحاسن لتأخذ منها غير ما عندها

وقد حميت لســـانى أن أبين به فمـــا يعبر عنى غير ايمـــائى
يا ويح أهـــلى أبلى بين أعينهـــم على الفـــراش وما يدرون ما دائى
لو كان زهدك فى الدنيا كزهدك فى وصلى مشيت بلا شك على المـــاء

وقال فى حسن :

طفـــلة[1] خـــود[2] رداح[3] هام قلبى بهـــواها
قـــدها أحسن قـــد فاسـألوا من قد رآها
ما براهـــا الله الا فتنـــة حـــين براها
تنثـــر الدر اذا غنـ ـت علينـــا شـــفتاها
وترى للعـــود زهوا حين تحـــويه يداها
ربما أغضيت عنهـــا بصرى خوف ســناها
هى همى ومنـــاى ليتنى كنت منـــاها

وقال فى عنان :

لولا حـــذارى من جنـــان لخلعت عن رأسى عنـــانى
وركبـــت ما أهـــوى ولم أحفل مقـــالة من نهـــانى
وخرجت أخبـــط ســـادرا لم أغن عن حب الغـــوانى
قـــد ذبت غير حشـــاشة فى النفس تحبسها الأمـــانى
يا من يلوم على الصـــبا دعنى فشأنك غير شـــانى
لم تلـــق من حـــر الهوى ما قـــد لقيت على عنـــان
انى ترد على قلبـــ ـــا راح فى غلـــق الرهان ؟
قلبـــا اذا كلفتـــه غير الذى يهـــوى عصانى
قد خضت فى لجج الهـــوى وشربت صـــافية الدنـــان
ومضـــمخات بالعبـ ـير نزلن من غرف الجنـــان
راضـــعتهن من الصـــبا كأســـا عقدن بهـــا لسانى
أقبلن من باب الرصـــا فة كالتـــماثيل الحســـان
يحففن أحـــور كالغـــزا ل أمـــر امـــرار العنـــان
يمشى بردف كالنقـــا يختـــال تحت قضـــيب بان

---

(١) طفلة : الطفلة بفتح الطاء : الرخصة الناعمة . (٢) خود : الشابه الناعمة . (٣) رداح : الرداح بالفتح المرأة العجزاء التامة الخلق .

ولقـــد أقــول لمن دعــا ... ه من الهوى ما قـــد دعاني
أبلغ هــواك من الغنـــــا ... والكأس وأغن عن الزمان
لا يشـــغلنك غـــير ما ... تهوى فـــكل العيش فان
ودع الهـــــوان لأهله ... ان زلت عن دار الهــوان

وقال فى جنان :

دع جنـــانا وحبهـــا ... عنـــك ان كنت عاقــلا
لا تذكـــر بنفسـك المو ... ت ان كـــان غافـــلا
أنت ان لم تمت بهـــا الـ ... عام لم تنـــج قابـــلا
رجمـــت نفســك التى ... ذهبـــت عنـــك باطلا

وقال فيها :

ولقـــد ســـباك منعـم ... ميسان (١) مبتهـــج ربيـــب
خود يحــول وشاحهـــا ... فى طى مئزرهـــا كثيب
واذا تقـــوم لشأنهـــا ... يمشى بأعـــلاها قضيب
فالويل لى مـــا حل بى ؟ ... قد شفنى حـــزن مـــذيب
بين الجـــوانح والمفـــا ... صـــل كالشرار له لهيـــب

وقال فى منية :

أبت عيناى بعدك أن تناما ... وكيف ينام من ضمن السقاما
بكيت من الفراق لما ألاقى ... وراجعت الصبابة والغـــراما
رجعت الى العراق برغم أنفى ... وفارقت الجـــزيرة والشاما
على شط الشـــام وساكنيه ... ســـلام مسلم لقى الحمـــاما
مذكرة مؤنثـــة مهـــاة (٢) ... اذا برزت تشبهها الغـــلاما
تعاف الماء والعسل المصفى ... وتشرب من فتوتها المـــداما

وقال موريا أو مصرحا :

لمـــا تكشف عنى أننى كلف ... كشفت عمدا لهم عمن به الكلف
جيم وجدت لها نونين بينهما ... لمن تهجى اسمها أو خطه ألف
يضمه من ثقيف بعض دورهم ... ما بينكم بعد ذا التبيان مختلف

---

(١) ميسان : مختال في مشيته . (٢) مهاة : البقرة الوحشية .

وقال من غزل المذكر :

غــزال به فتر وفيـــــه تأنث
وأحسن مخلوق وأجمل من مشى

أقول له يوما وقد مضنى الهوى
أطلت عذابى فيك يا خــير من نشا

فقال : الما يأن ان تترك الصــــبا
ومالك ياهذا ؟ ومالى ؟ وماتشا ؟

فقلت له : أقصر عن اللوم ســيدى
فمن ذا يطيق الصبر عن مشبه الرشا

أرى لك وجهــا فتت القلب حسنه
به ينجلى كربى وقد ينجلى الغشـــا

أتقتلنى ان قلت انى أحبـــــــه
ولاذنب لى ان كان فى الناس قد فشا

كتمت الهــوى حتى أضر بمهجتى
وكان الهوى طفلا صغيرا فقد نشا

فرق لى المولى ففـــزت بمــوعد
وقال انتظرنى قبل مقتبل العشا

وقال منه :

ومعشوق الشمائل والدلال ... كقرن الشمس فى قد الغزال
تأزر بالمــــلاحة وارتـــداها ... وسربل بالــكمال وبالجمال
ضيا شمس تفرع فى قضيب ... ودعص[1] نقا ترجرج فى اعتدال
له فى خـــــده خال مليـــح ... بنفسى ذاك من خــد وخال

وقال :

مستيقظ اللحظ فى أفنــان وســـنان
قبلت فاه فحيـــانى بريحــــــان

---

(١) دعص : الكثيب الصغير من الرمل .

مســـــتعبد للامانى حسن منظـــره
عف الضمير ولـــكن لحظـــه زان

يا من تأنـــــق باريه وصـــوره
دعصا من الرمل فى غصن من البـان

وقال :

وظبى تقســـــم الآجا ل بين الناس عينـــاه
وتورى البث والأشـجا ن فى القلب ثنـــاياه
وتحكى البـدر وقت التم(١) للأعين خـــــداه
تعـــــالى الله ما أحســـ ن ما صـــــوره الله
ولو مثـــل نفس الحســـ ن شخصا ما تعـــداه
له آخــــــرة قد أشـ بهت فى الحسن دنيـــاه
فلو أنا جحـــــدنا اللـ ه يومـــا لعبـــدناه
بنفسى من اذا ما النـــأ ى عـــن عينى واراه
كفـــانى أن جنـح(٢) الليـ ل يغشـــانى وأغشـــاه

وقال :

متتايه بجمـــــاله صلف لا يستطاع كلامه تيهـــا
للحسن فى وجنـــاته بدع ما أن يمل الدهر قاريهـــا
لو كانت الأشباح تعرفه أجللنه اجلال باريهـــا
لو تستطيع الأرض لانقبضت حتى يكون جميعه فيها

وقال :

أيهـــــا الناس ارحمونى وتمشـــــوا لى اليــــه
كلموه فى ســــــكون لا تشـــقن عليــــه
كلمـــــوه اليـــوم يرضى عن أســـــير فى يديه
لو رأيتـــم حين يمشى كاسرا من حاجبيـــــه
فى ازار قـــــــد لواه ثم دلى طرفيـــــه

---

(١) التم : بالفتح والكسر : أطول ما يكون من ليالي الشتاء وبدر تم ودراهم تم أي : تمام ٠ (٢) جنح : الجنح بالكسر طائفة من الليل وقطعة منه ٠

قلتم ذا الفتـــك حقــــا ليس ما نحــــن عليــه

وقال موريا أو مصرحا :

لـــكن اذا عيــل صبرى ذكرته فى هجـــــاتى
عـــين ولام وميـــم مليحـــة النغمـــات

وقال كذلك :

لم أزل أخلع فى الحب الرسن وفؤادى عنـد ظبى مرتهن
وجفونى ســاكبات دمعهـا والحشا فى حشوه منى الحزن
منذ أبصرت هــلالا طالعــا يتثنى بقـــوام كالغصــن
ميمه شف فؤادى فى الهوى وبحاء ، فيه قلبى قـد فتن
وبميم بعــــــدها أقلقنى وبدال سل روحى من بدن

***

هذه أمثلة متفرقة من غزل أبى نواس فى المؤنث والمذكر ، جمعناها بين جدها وهزلها ، ومبالغتها واعتدالها ، وجيدها ورديئها ، وعرضناها معا نقابل بينها من يشاء كما قابلنا بينها ، فهى على ما نرى سواء فى لبابهـــا وقشورها ، لا يجزم الناقد برجحان غزل المؤنث منها على غزل المذكر ولا برجحان غزل المذكر منها على غزل المؤنث ، واذا اتفق تفضيل قطعة من هذا الغزل على قطعة من ذلك الغزل فكما يتفق تفضيل القطعة على الاخرى فى الغزل الواحد ، أو كما يتفق التفاضل بين كلام الشاعر فى بعض أغراضه أو فى جميع أغراضه ، فلا يكون الشاعر مجيدا فى كل ما يقول ولو قصر النظم على بابه الذى فرغ له ولم يستحسن له قول فى غيره ..

وتتشابه الصفات والملامح التى يهواها الشاعر فى معشوقاته ومعشوقيه ، ويهوى المعشوقة أحيانا لانها « مذكرة مؤنثة » ويهوى المعشوق أحيانا لأنه « متفتر وفيه تأنيث .. » فكما يكون من محببات الانثى اليه أنهـا تشبه الغلام فى بعض أوصافه كذلك يكون من محببات الغلام اليه انه يشبه الأنثى فى بعض الأوصاف

انما جزم بعض النقاد برجحان غزله فى المذكر على غزله فى المؤنث لأنهم ساقوا أنفسهم اضطرارا الى هذا الترجيح ، وفرضوا فرضهم الاول بغير فهم لحقيقته ثم ألزموا أنفسهم نتائجه عن اعتساف لا دليل عليه

فرضوا ان الشذوذ الجنسى شىء واحد يستلزم أن يكون الشاذ منحرفا الى هوى أبناء جنسه ، ثم وجدوا أبا نواس يتغزل بالجوارى كما يتغزل بالغلمان ووجب أن يعللوا هذه الغرابة فعللوها بالصدق فى أحد الغزلين والكذب فى الغزل الآخر ، ولكنهم اذا رجعوا الى الحقيقة لم يجدوا علامة من علامات الصدق عندهم ينفرد بها غزل المذكر أو غزل المؤنث ، سواء نظروا الى التعبير عن الشعور أو نظروا الى الاجادة الفنية ، وهذا على فرض أن الاجادة الفنية شرط من شروط الشعور الطبيعى فى أهل الفنون وفى سائر الناس

وتصحيح هذا الخطأ انما يكون بالرجوع الى العلل النفسية كما شرحتها الدراسات الأخيرة ، فأصل الخطأ سوء فهم الشذوذ الجنسى الذى انطوت عليه طبيعة أبى نواس ، فلم يكن شذوذه يستلزم الشغف بأبناء جنسه دون غيرهم ، ولم يكن جنسه هو سويا غير مشترك حتى يظن به أنه يميل الى جنس واحد . وانما كانت له طبيعة جنسية تشتبه بكلا الجنسين وتتشكل بهذا الشكل مرة وبذلك الشكل مرة أخرى ، على حسب غوايات الطبيعة النرجسية ، ومن ثم حبه الفتى لأنه كالفتاة وحبه الفتاة لأنها كالفتى ، ونظرته الى الرجولة بعين المرأة فى بعض الأحايين

واذا اعتبرنا رجحان الغزل بما ينم عليه من حرارة الشعور فربما توافقت الآراء على أن غزله فى جنان أنم على حرارة الشعور من سائر غزله ، فان لم تتوافق الآراء على ذلك فلا نعرف قصيدة فى غزل المذكر يحسبها النقاد راجحة بحرارة الشعور على سائر القصائد الغزلية

والمدار فى غزل أبى نواس جميعه على الصورة التى يشخص بها نفسه فى ذات معشوقه أو معشوقته على دأب النرجسيين ، وقد مر بنا أنه كان يعجبه ممن يتغزل به أن يلثغ بالراء وأن يتشبه بالادباء ، وأن يقتدى به

يوم كان معشوقا فى صباه ، ولم تفارقه هذه الخليقة النرجسية حتى بعد أن كبر واكتهل ، فكان يقول فى معشوق ملتح :

قال الوشـــاة بدت فى الخـد لحيته
فقلت لا تكثروا ، ما ذاك عائبـــه
الحسن منـه على ما كنت أعهـده
والشـعر حرز له ممن يطالبـه
بهى وأكـثر ماكانت محاسـنه
أن زال عارضـه وأخضر شـاربه
وصـار من كان يلحى فى مـودته
ان سـأل عنى وعنه قال صـاحبه

وبديه أن النظر فى غزل أبى نواس لامحل فيه للكلام على وفاء العشاق بالمعنى الذى عرفه قراء الادب العربى من أخبار العذريين ، بل لا محل فيه حتى للتجمل الذى كان يناسب سمت الشعراء الغزليين من أمثال ابن أبى ربيعة ، فقد كانت بيئة أبى نواس بعيدة عن بساطة البداوة بعيدة عن تجمل ذوى البيوتات من الفتيان والعقائل ، وكانت بيئته على الاكثر بين الجوارى والقيان وبين المتعرضين لشعراء المجون من الغلمان . وقد زاد عـدد معشوقاته المذكورات فى ديوانه على عشر ، منهن جنان ودر ودنانير ونبات وحسن ومنى ومنية وسمجة وعنان ومكنون وعريب وقاتل ، عدا اللاتى تغزل بهن ولم يذكر اسماءهن ، وكان يبث لوعته لعنان فى ابان منـاجاته لجنان ، فيقول :

لولا حـذارى من جنـان لخلعت عن رأسى عنـانى

. . . .

يا مـن يلوم على الصـبا دعنى فشأنك غير شـأنى
لم تلق من حـرق الهوى ما قـد لقيت على عنـان

وتغزل بمثل هذا العدد أو أكثر من المعشوقين ، فلم يحرص على ظاهر الوفاء فضلا عن مضمره ومكنونه ، ولم يكن عرف البيئة يتطلب منه هذا

المظهر فى غزله بالمؤنث أو غزله بالمذكر ، فما كان الغزل فى عرفهم الا تسلية وتزجية فراغ وشغلانا بثرثرة المجالس ووشايات المجتمع ومناوشات الأندية التى يجتمع فيها الشاربون وطلاب السماع والمسمعات أو المسمعون من القيان والمغنين . .

ذلك كان ديدن العصر بجملته .. أما الزيادة من أبى نواس على عرف عصره فهى زيادة الطبيعة الموكلة بالعرض والتشخيص ، وهى زيادة الطبيعة النرجسية التى تجعل العاطفة نحو غيره كالمنقولة أو العارية المستردة ، لان النرجسى كما تقدم يتمثل نفسه فى غيره ولا يحب ذلك الغير الا بمقدار الدور الذى يحكيه أو الزى الذى لايلبث أن يخلعه ، وبخاصة حين يكون النرجسى كأبى نواس « مشترك الجنس » قادرا على تمثل شخصه فى الاناث والذكور ، وعلى تمثل نفسه محبوبا للرجال والنساء

ويبدو لنا أن شعره الذى يعلن فيه زهده فى المرأة انما كان من اعراض المرأة عنه لا من اعراضه هو عن المرأة ، وأنه كان يشتهى المرأة فلا يستهويها فيدارى خيبته معها ويوهم الناس أنه يتركها باختياره ولا يتركها على الكره منه ..

وكان يعجب الناس أن يتحدثوا بعجائبه وشذوذ طبعه فيجمع المتكلمون عنه على رفضه الزواج ، ولم يصدقوا كل الصدق على مايظهر من قوله يخاطب ابنة له :

يابنتى أبشرى بميرة مصر
وتمنى وأسرفى فى الامانى

وقوله عمن تركها فى بيته :

تقول التى عن بيتها خف مركبى
عزيز علينا أن نراك تسير

ولابد من الرجوع بشىء من مبالغات أبى نواس فى الولع بالغلمان الى البدعة التى نشأت فى زمانه ولم تكن لها سابقة فى الأدب العربى قبله ، فلم يسمع عن شاعر من الجاهليين والمخضرمين أنه نظم الشعر غزلا بالمذكر ،

ولم يكن غزل ابن مناذر قبيل أبى نواس بقليل على هذا التهتك والمجون الذى فشا حوالى منتصف القرن الثانى وقبل نهايته ، ففى هذه الفترة كان غزل المذكر بدعة يلهج بها من لم يكن من أهل الفســـوق والمجانة ، ومن أخبار ابن منظور التى رواها عن أبى نواس انه عشق فتى يسمى جمالا الدارمى وكان لا يشرب الخمر ولا يغشى معارَض الشــبهات ، وقد تغزل بخمسين غلاما ولما يجاوز العشرين .. وفى هذا الفتى يقول أبو نواس :

يا واصف الخمسين لو تعدل لكان فيهم اســـمك الاول
وصفت خمســـين فميزتهم وأنت أنت الظبية المغـــزل
جمال دع عنك لنا وصفهم أنت وربى منهم أجمـــل

***

وما كان من خيم[1] أبى نواس ــ وهو المطبوع على العلانية والتحدى ــ أن يشنهد البدعة ولا يتمادى فيها حتى يسبق مبتدعيها ، فالافراط فى غزل المذكر لا يحسب كله على أبى نواس ولا يتخــذ كله دليــلا على نوازعه وأهوائه . ويصدق عليه فى هذه الخلة ما يصدق على الشيطان فى أمثــال الغربيين ، فليس هو من السواد الحالك بحيث يرسمه الرسامون !

ثم تنحسر الشهرة عن زياداتها وتثوب الطبيعة الى حدودها ، فتبدى لنا الحسن بن هانىء فى تلك الحدود على حقيقة شذوذه الجنسى الذى يفسر غزله بالمؤنث وغزله بالمذكر ، ويفسر تأنثه فى صباه ويفسر مبالغته ودعواه ، وذلك هو شذوذ الطبيعة النرجسية التى مكنتها فيه بيئته من أهله وعصره ومعاشريه ..

---

(١) خيم : الخيم بالكسر : الطبيعة والسجية .

الجاحدون واللادينيون

عقيدة أبى نواس

ينقسم الناس الى مؤمنين وجاحدين ، أو كافرين

وهذا تقسيم شائع فى اصطلاح المباحث الدينية . ولكن الباحثين النفسيين يهمهم الاستعداد النفسى وارتباطه بتركيب البنية وبواطن السريرة ، فهم يقسمون الناس على حسب هذا الاستعداد الى قسمين آخرين وهما الدينيون واللادينيون ..

وهنالك فارق أصيل بين الجاحدين واللادينيين :

فالجاحد قد ينكر دينا لم تطمئن سريرته الى عقائده وشعائره ويظل متفتح القلب للايمان بدين آخر ، وقد ينكر الأديان التى يعرفها جميعا ويجاهد فى انكارها بحماسة تشبه حماسة المؤمن المستبسل فى جهاده ، ولعله ينكر الاديان التى يعرفها تشوقا الى دين يسمو عليها ويرتفع لديه الى المثل الاعلى الذى يحلم به ويتمناه

فان لم يكن منكرا للدين على نحو من هذه الأنحاء فهو مهتم بالدين على أية حال ، وليس مكان الدين من باطنه خواء لايتسع لايمان ولا انكار ولا مناقشة ولا انتظار

أما اللادينيون فهم مخالفون للجاحدين فى هذه الخلة ، اذ هم لا يحفلون بالدين ولاينشطون لقبوله ولا لانكاره ، ولا يشغلون عقولهم به لمحة عين كأنهم ولدوا قبل وجود الاديان فلم يسمعوا بها ولم يشعروا قط بخاطر من خواطرها ، فهم غرباء منقطعون عن هذا الشاغل القوى من شواغل الوجدان

ان الجاحد قد يكون عدوا أو مهادنا أو على الحيدة بين معسكرين . أما اللادينى فليس هو بعدو ولا مهادن ولا محايد ، ومجمل القول فيه أنه غريب عن الميدان ..

وذلك كما تقدم فارق أصيل بين الجاحدين واللادينيين : فمن أى الفريقين كان الشاعر أبو نواس ؟

لم يكن عن يقين من اللادينيين ، لأنه لم ينقطع قط عن اللهج بالأديان وان كان ليلهج بها لهجا لا يطيب للمتدينين الصالحين

وليقل من شاء ما شاء فى زندقته ومجونه وعصيانه ولغو لسانه ، فانه بعد كل ما يقال من هذا القبيل بعيد جدا أن يحسب من اللادينيين الذين صغر مكان الدين من نفوسهم فلم يشغلهم منه شاغل ولم يكن فيه ولا فى أهله ما يهمهم على وجه من الوجوه

واذا صرفنا النظر عن نوع اشتغاله بشأن الدين فليس بين شعراء العربية من عناه هذا الشأن كما عناه ... اذ هو لم يذكر قط مجلسا من مجالس لهوه ولا معرضا من معارض غزله الا أشار معه الى جوه الدينى أو علاقته الدينية ، بغير داعية من دواعى الموضوع أو المقام

ولو ذهبنا نستقصى هذه الاشارات لأوشكنا أن ننقل ديوان غزله ومجونه ، ولكننا نجتزىء بما يكفى للدلالة على هذه النزعة العجيبة فى قريحته ووجدانه ..

منها فى موعد :

وظباء يتلون سفرا من الانجيـ ... ـل باكرن سحرة قربانا

ومنها :

صفراء مجدها مرازبها[1] ... جلت عن النظراء والمثل

ومنها : خذها على دين المسيح اذا نهى ... عن شربها دين النبى محمد

ومنها : آذنك الناقوس بالفجر ... وغرد الراهب فى العمر

ومنها : حراما كان أوله حلالا ... فخل الحل يذهب بالحرام

ومنها فى الغزل :

ياسمى الكليم من كلم اللـ ... ـه وأدنى مكانه تقريبا

وشبيه الذى تلبث فى السجـ ... ـن سنينا وكان برا نجيبا

وابن قارىء القرآن غضا كما ... أنزل قد سمت قلبى التعذيبا

---

(١) مرازبها : المرزبان بضم الزاي : الرئيس المقدم على القوم دون الملك عند الفرس ، والجمع مرازبة .

ومنها في الغزل أيضا :

الا يا قمـــر الدار ويا مســـكة عطـــار
ويا نفحـــة نسرين ويا وردة أشـــجار
ويا عـــرش ســـليمـ ـــان اذا هم بأســـفار
ويا مزمـــور داود اذا يتـــلى بأســـحار
ويا كعبـــة بيت اللـ ـــه ذا ركن وأســـتار
لقد أصـــبحت من حبـ ـك بين الخـــلد والنار

ولا نهاية لهذا المعنى الا باستنفاد خمرياته وغزلياته ، فهو لا ينى في قصائده هذه « يتحرش » بالدين والعبادة ، وينم بتحرشه هذا على العاطفة التى ينم عليها التحرش عادة ، وهى عاطفة ليست من العداء وليست من الازدراء ، ولكنها شغلان يشوبه العبث واهتمام لا يقوى على الجد ولا على الترك والنسيان ، وفهمه ميسور اذا قسناه على كل تحرش من قبيله في العواطف الانسانية .. فالتحرش قبل كل شيء اهتمام ..

مغالاة بقية اللذة

وهذا الاهتمام بذكر الحرمات في شـــعر أبى نواس انما هو مغـــالاة بقيمة لذته وتقريبه بين الشعور بها والشعور بالقداسة ، فليس هو في وعيه الخفى حطا من قيمة الحرمات بل رفع لقيمة اللذات واعتزاز بمقـــاربتها لمكان الصون من العبادة والتقوى

دخل أبو نواس السجن لاتهامه بالزندقة،وطال حبسه حتى زار السجن خال الوزير الفضل بن الربيع يتفقد السجناء ويتحرى أسباب سجنهم ، فسأل أبا نواس : أزنديق أنت ؟ قال : معاذ الله .. قال : لعلك ممن يعبد الكبش ؟ .. قال : أنا آكل الكبش بصوفه . قال : فلعلك ممن يعبد الشمس ؟ قال : انى أترك القعود فيها بغضا لها فكيف أعبدها ؟ .. قال : أفتذبح الديك ؟ قال : ذبحت ألف ديك . لأن ديكا مرة نقرنى فحلفت لا آخذ ديكا الا ذبحته .. فسأله : ألك ذنب غير هذا ؟ قال : لا والله !.. اتهمونى اننى أشرب شراب أهل الجنة وأنام خلف الناس ... قال : —

وكانت فيه غفلة ــ فأنا أيضا أفعل مثل هذا فلماذا حبست ؟ ثم خرج الى الفضل فقال : ماتحسنون جوار النعم . تحبسون من لا ذنب له !

ولم يكذب الخبيث فى جواب واحد ، فما كانت له نحلة من هــذه النحل ولم يعتقد شيئا من عقائد الزنادقة فى عصره عن جد ودراية ، ولكن الذين حبسوه على هذا لم يظلموه ولم يعتقلوه لغير جريرة فانه لم يدع تهمة تلحقه بالزنادقة الا تعرض لها وأورد نفسه كل مواردها ، وأعلن من كلامه وفعاله ما يثبتها ويستغنى عن الشهود والبينة عليها

على أن المحتسبين الموكلين بالزنادقة والمفسدين لا يعوزهم الشهود ممن كانوا يحبون الوقيعة بالشاعر لسيئاته وحسناته على السواء ، فلم يكن أكثر من حساده بين أنداده كما قال محمد بن عمر « ولم يكن شاعر فى عصر أبى نواس الا وهو يحسده لميل الناس اليه وشهوتهم لمعاشرته وبعد صيته وظرف لسانه » . وأشد من حساده سعيا الى الوقيعة به من كان يهجوهم أو يترفع عليهم أو يسخر منهم ، وهم غير قليلين

وأكثر منهم عددا من كانوا يشهدونه ويسمعونه وهو يجهر بالعصيان والدعوة اليه ، ويقول فى بعض غزله :

يا أحمــد المرتجى فى كل نائبة ... قم سيدى نعص جبار السماوات

أو يقول فى بعض مجونه يخاطب الفيلسوف ابراهيم النظام :

قــولا لابراهيم قــولا هترا[1] ... غلبتنى زندقة وكفــــرا

أو يقول :

فدعى الملام فقــد أطعت غوايتى ... وصرفت معــرفتى الى الانكار
ورأيت اتيانى اللذاذة والهــوى ... وتعجلى من طيب هــذى الدار
أحرى واحزم من تنظــر آجــل ... علمى به خبر من الاخبــــار
ما جاءنا احــد يخبر انه ... فى جنـــــة مذ مات أو فى نار

ومن لم يسمع شعره فربما سمع نوادره وشهد مساخره ، وقد دخل المسجد مرة وهو على أقبح السكر وسمع الامام يقرأ : « قل يا أيهــا الكافرون » فصاح به من ورائه : لبيك . وشرب فى يوم مطــير فوضع

(١) هترا : الهتر بالكسر : الكذب والسقط من الكلام والخطأ فيه .

قدحه تحت السماء فوقع فيه المطر وقال لمن حوله : « أنتم تزعمون انه ينزل مع كل قطرة ملك ، فكم ترانى أشرب الساعة من الملائكة » ثم شرب ما فى القدح ..

ولعله كان يتحدث هنا وهناك بمذهب الثنوية ويروى كلامهم فى الظلمة والنور ، ويهرف[1] بما يعرف وما لا يعرف من هذه الأمور

وقد مضى أبو نواس ومتهموه والشهود عليه ومضى عصره كله وبقى من أخباره انه كان يتزندق لأنه كان يتفلسف ، وأنه اطلع على علم النجوم، وعلوم الاوائل من الهند والروم ، فزاغ عن اليقين ، ومرق من الدين ، اد كانت كلها علوما منقولة عن الكفرة والملحدين

أما أن أبا نواس سمع شيئا من تلك العلوم وألم بطرف من آراء القوم فذلك مفهوم من أقوال له نذكر منها :

تحيرت والنجـــوم وقف   لم يتمكن بهـا المـدار

وهو من قول أهل الهند أن مدارات الافلاك يحيط بهـا مدار واحد ، وأن الأفلاك الصغار تدور وتعود الى المدار ، ولكن المدار الأكبر اذا انتهى من دائرته توقف كما كان قبل الحركة ، فتكون القيامة ويعود الـكون سيرته الاولى دواليك

وربما كان من ذلك قوله :

حتى بدت حـــركات   مخلوقة من ســـكون

وربما سمع كلاما فى الطبائع على مذهب الاقدمين كمـا يؤخذ من قوله :

سخنت من شـــدة البرودة حـ   ـتى صرت عنـدى كأنك النـار
لا يعجب السـامعون من صفتى   كذلك الثـلج بارد حـــار

أو سمع أسماء الكواكب باليونانية وطوالعها التى نقلهـا اليونان عن العراق قديما فتحدث بها كأنها من المستحدثات :

صورة المشترى لدى بيت نور اللـيـ   ـل والشمس أنت عنـد انتصاب
ليس «زاويش» حين سار امام الحـ   ـوت والبدر اذ هوى لانصباب

---

(١) يهرف : هرف الرجل بصاحبه أطرأ بالمدح اعجابا به . ومنه المثل : لا تهرف بما لا تعرف .

منك أسـخى بمـا تشح به الأنفـ ـس عند انتقـاص در الحـلاب
لا و « بهرام » تسـتقل به العقـ ـرب بالليل زائدا فى الحسـاب
منك أمضى لدى الحروب ولا أهو ل فى العين عنـد ضرب الرقاب

والمشترى وزاويش « زيوس » شيء واحد ، وبهرام أو المريخ سيار يقال عنه فى الأساطير انه اله الحرب ، والعقرب برج من البروج المتوهمة فى الفلك ، والمنجمون المخرفون يزعمون المزاعم عن مقارنات السيارات والبروج ودلالتها على الوفر والرخاء أو على الحرب والقحط ... ومن سمع الحذلقة بهذه الأراجيف فى نظم الشاعر خيل اليه أنها هى المعميات التى قادته الى زندقته ومروقه ، ولا شأن لهذا بذاك الا أن يكون شأن السعود والنحوس التى هـذر بهـا المنجمون ــ فى وادى النهرين على الخصوص ــ من قبل التاريخ

ولعله سمع كلاما فى الصفة والموصوف من قبيل قوله فى حسن :

ان أسـم حسن لوجههـا صفة ولا أرى ذا فى غـيرها اجتمعـا
فهى اذا سـميت فقـد وصفت فيجمع الاسم معنيين معـا

الى نظائر من هذه الأقاويل يستطيع المتلقف أن يجمعها فى بضعة أيام وهو يجلس الى المتفيهقين بها ممن تعمقوا فيها أو تخطفوها لماما ثم لا يقال عنه أنه عرف ما يناقض الدين أو يبيح المحظورات ، ويغرى المرء بركوب رأسه فى الموبقات ..

ولقد كان ابراهيم النظام من أعلم أهل زمانه بهذا الذى يسمونه علوم الأوائل وكان أبو نواس يحضر عليه فينهاه عن التبذل ويذكره الوعيد ويقول له ان من ترقب وعد الله فعليه أن يحذر وعيده ، فلا يرعوى عن لغوه ومجونه حتى يئس منه فطرده من مجلسه فنظم فيه قصيدته التى اشتهرت بالابراهيمية ومطلعها :

دع عنك لومى فان اللـوم اغراء وداونى بالتى كانت هى الـداء

وفيها يسخر منه :

فقل لمن يدعى فى العلم فلسفة حفظت شيئا وغابت عنك أشياء
لاتحظر العفو ان كنت امرءا حرجا فان حظركه بالدين ازراء

فالذين اتهموا أبا نواس لم يظلموه ولم تعوزهم البينات على دعوته للفساد ولعلهم قد ظلموا الفلسفة وعلوم الاوائل فظنوها مدرجة المطلعين عليها الى الزندقة ومذاهبها ، ولا زندقة هنا ولا مذاهب ولا شىء غير المجون وحب الظهور ، وعند أبى نواس منه — كما أسلفنا — أسباب لم تكن عند أحد من معاصريه ! ولكنه لم يكن يعيبه من نفسه كما كان يعيبه من غيره على حد قوله فى أبان اللاحقى اذ كان يتظرف بادعاء الزندقة :

جالست يوما أبانا لادر در أبان
ونحن حضر رواق الا مير بالنهروان
حتى اذا ما صلاة الا ولى دنت لاوان
فقام منذر ربى بالبر والاحسان
وكلما قال قلنا الى انقضاء الاذان
فقال : كيف شهدتم بذا بغير عيان ؟
لا أشهد الدهر حتى تعاين العينان
فقلت : سبحان ربى فقال : سبحان مانى (١)
فقلت : عيسى رسول فقال : من شيطان
فقلت : موسى نجى المـ هيمن المنان
فقال : ربك ذو مقـ ول اذن ولسان
أنفسه خلقته أم من ؟ فقمت مكانى
وقلت : ربى ذو رحمـ ـة وذو غفران
وقمت أسحب ذيلى عن منكر القرآن
عن كافر يتمرى بالكفر بالرحمن
يريد أن يتساوى بالعصبة المجان

(١) امام المانوية القائلين بالهين : اله النور ، واله الظلمة ..

أبو نواس ماجن

والمجان فى عرف تلك البيئة هم الظرفاء ، والمجون هو الظـرف على اعتقادها وفى طليعتها أبو نواس : نصح له الأمير أبو العباس محمد أن يتوب عن المجون فقال له : أما المجون فما كل أحد يقدر أن يمجن ، وانما المجون ظرف .. ولست أبعد فيه عن حد الأدب أو أتجاوز مقداره ، اما المعاصى فانى أثق فيها بعفو الله عز وجل وقوله تعالى ، فوالله لو أن السندى يقول ما قاله الله عز وجل لوثقت به ، فكيف يقول رب العالمين وهو يقول : « يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا » ..

والعصبة المجان الذين أراد أبان اللاحقى أن يتشبه بهم هم طائفة من زملاء أبى نواس كحماد عجرد ووالبة بن الحباب ومطيع بن اياس وقاسم ابن زنقط وعيسى بن غصين وعبيـد العاشقين الذى لقب بذلك لجمعه عاشقا ومملوكه وعاشقا وجاريته ، وغيرهم ممن يكبرونه فى السن أو يقاربونه ولكنه كان أشهرهم بمنحاهم فى المجون ، لأن دواعيه اليه أكثر وشعره فيه أسير ، فهو يحل من هذه الطائفة محل «الشخصية النموذجية» التى تقدم الكلام عليها ، معظمهم مثله من الموالى الذين فتحت لهم ثقافة العصر أبواب المعرفة ، وكلهم من الذين ابتلوا بمركبات النقص عـلى اختلافها ، وليس فيهم من تسلطت عليه جميعا كما تسلطت عليه

فلا زندقة عند صاحبنا ولا فلسفة ، وكل ما عنده ولع بالظهور وضعف عن مقاومة الغواية والفجور

وبغير « دراسات نفسية » أو تحليلات عويصة فى البواطن الخفية ، أيمكن أن يكون انسان كأبى نواس منكرا للدين كله مواجها الظـلام المجهول بذلك الانكار ؟

ليست المعضلة فى هذا السؤال معضلة الصلاح والبصيرة الروحانية ، وليس فقـدان الصلاح والبصيرة الروحانية هو كل ما يلزم للانكار

والاصرار عليه ، فقد يكون المرء مجردا من صلاح الدين والخلق مقفر الوجدان من البصيرة الروحانية ثم لا يقوى على مواجهة الموت الأبدى والظلام السرمدى على يقين واصرار ، ولا بد له فى هذا الموقف من صرامة واقتحام يواجه بهما تلك المخافة التى لا مخافة مثلها فى الحياة ولا بعد الحياة ..

فهل طبيعة كالطبيعة النواسية تنبنى على ذلك المعدن الصلد الجسور وهل عنده من الشكوك ما يتغلب فى أعماق طبعه على تعلات الامل والرجاء ؟ ..

لو اجتمع شهود العالم ومعهم الأطباء النفسيون على زعم كذلك الزعم لما اقنعوا أحدا بزعمهم الذى تنقضه كل لحمة وسداة فى نسيج هذه النفس الرخية المهلهلة . ولكن الاطباء النفسيين على الاقل لا يزعمون له تلك القوة الصماء ، لأن طبيعته والقوة باشكالها وأنواعها لا تتفقان

وأقرب من ذلك الى المألوف أننا أمام نفس ضعفت عن غواية الظهور وغواية الفجور ، ولم تخل قط من شاغل بالدين تتمسح به أو تتحرش به كما تقدم فى صدر هذا المقال ، وأعيتها عقيدة العزم والمناعة فاحتالت حيلتها كى تظفر بعقيدة تركن اليها ، فوجدتها فى نحلة من نحل عصرها ، نخالها هى النحلة الوحيدة التى تكلف النواسى الاطلاع على مراجعها ، أو على مايلائمه من تلك المراجع فطابت له ، وتقبلتها سريرته على الكره منها ، لانها لا تستطيع الخلو من عقيدة ولا تستطيع عقيدة العزم والمناعة

تلك هى نحلة « المرجئة » كما توسع فيها طلاب الرخصة[١] من قبيل أبى نواس وقد وسعوها بأهوائهم فوسعت لهم كل ما اشتهوه

نحلة المرجئة

نشأت فرقة المرجئة على اعتدال وحكمة فى أيام الخلفاء الراشدين واعتصم بها الذين كرهوا الخوض فى الخلاف بين اجلاء الصحابة بعد مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه فتركوا الامر لله يحكم فيه يوم الدين

(١) الرخصة : التسهيل في الامر والتيسير خلاف التشديد والاذن .

وسموا بالمرجئة لانهم لم يتعجلوا الحكم على فريق من الفريقين وجماع هذا الرأى فى الشعر قول ثابت بن كعب الملقب بقطنة :

يا هند إنى أظن العيش قد نفدا ... ولا أرى الامر الا مدبرا نكدا
انى رهينة يوم لست سابقه ... ألا يكن يومنا هذا فقد أفدا(١)
يا هند فاستمعى لى ان سيرتنا ... أن نعبد الله لم نشرك به أحدا
ترجى الأمور اذا كانت مشبهة ... ونصدق القول فيمن جار أو عندا
المسلمون على الاسلام كلهم ... والمشركون استووا فى دينهم قددا(٢)
ولا أرى أن ذنبا بالغا أحدا ... فى الناس شركا اذا ما وحدوا الصمدا
لا نسفك الدم الا أن يراد بنا ... سفك الدماء طريقا واحدا جددا(٣)
من يتق الله فى الدنيا فان له ... أجر الحساب اذا وفى الحساب غدا
وما قضى الله من أمر فليس له ... رد وما يقض من شىء يكن رشدا
كل الخوارج مخط فى مقالته ... ولو تعبد فيما قال واجتهدا
أما على وعثمان فأنهما ... عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا
وكان بينهما شغب وقد شهدا ... شق العصا وبعين الله ماشهدا
يجزى عليا وعثمانا بسعيهما ... ولست أدرى بحق أية وردا
الله يعلم ماذا يحضران به ... وكل عبد سيلقى الله منفردا

وكان ثابت بن كعب صاحب هذه القصيدة ــ وهو شاعر مجاهد ــ يعتدل على الجادة المثلى بين الطرفين : طرف الخوارج الذين يتهجمون على التكفير جزافا وطرف الطوائف المتنازعة التى كانت تخبط فى التهم ذات اليمين وذات الشمال فلا تكفير لأحد آمن بالوحدانية والوحى المنزل ولا جدوى من الخبط بالتهم بين عثمان وعلى أو بين فرقة وفرقة من الصحابة ، وأمرهم جميعا موكول الى حساب الله

أما عصر أبى نواس فقد تباعدت فيه الفجوة بين الطرفين الى أقصى مداها ، فجزم الخوارج بتكفير كل من عداهم وحملوا السلاح لقتاله واعتبروا كل من خالف الدين فى معصية ارتكبها كافرا مخلدا فى العذاب ، وتعددت فرق المرجئة فنجم منهم من كاد يسقط الأوامر والنواهى ويقول

(١) أفد : قرب • (٢) قددا : صار القوم قددا تفرقت حالاتهم وأهواؤهم•
(٣) جددا : الجدد بفتحتين : وجه الارض ، والارض الصلبة المستوية ، ومنه المثل : من سلك الجدد أمن العثار •

ان الايمان عقيدة فى القلب لا شأن لها بأعمال الجوارح ، فكل من اعتقد الوحدانية والوحى المنزل فله جزاء المؤمنين يوم الحساب

ونقتبس هنـا بعض ماكتبه الشهرستانى عن هـذه الفرق فى كتابه « الفصل فى الملل والنحل » حيث قال فى الجزء الرابع :

« .. غلاة المرجئة طائفتان : احداهما الطائفة القائلة بأن الايمان قول باللسان وان اعتقد الكفر بقلبه فهو مؤمن عند الله عز وجل من أهل الجنة وهذا قول محمـد بن كرام السجستانى وأصحابه وهو بخراسان وبيت المقدس . والثانية الطائفة القائلة ان الايمان عقد بالقلب وان أعلن الكفر بلسانه .. فهو مؤمن كامل الايمان عند الله عز وجل .. وهذا قول أبى محرز جهم بن صفوان السمرقندى مولى بنى راسب كاتب الحارث بن سرنج التميمى أيام قيامه على نصر بن سيار بخراسان ، وقول أبى الحسن على بن اسماعيل بن أبى اليسر الاشعرى البصرى وأصحابهما .. وقالت طائفة الكرامية : المنافقون مؤمنون مشركون من أهل النار ، وقالت طائفة منهم أيضا : من آمن بالله وكفر بالنبى صلى الله عليه وسلم فهو مؤمن كافر معا ليس مؤمنا على الاطلاق ولا كافرا على الاطلاق ، وقال مقاتل بن سليمان : ـ وكان من كبار المرجئة ـ لا يضر مع الايمان سيئة جلت أو قلت أصلا ، ولا ينفع مع الشرك حسنة أصلا »

الى آخر هذه الأضاليل التى لا طائل تحتها ، فلا جرم يتلقف أبو نواس رأيا كهذا ويتهافت عليه ليجمع بين لهوه واعتقاده الايمان ، وطفق ينـادى بانكار الشرك ولا يبالى ما عداه فقال :

ترى عنـدنا ما يسـخط الله كله
من العمل المردى الفتى ماخلا الشركا

وقال .

ترى عنـدنا ما يكره الله كلـه
سوى الشرك بالرحمن رب المشاعر

ثم تشبث بأن الكبائر لا تسلك صاحبها مع الكفار ولا تحرمه الرجاء فى

عفو الله ، فكان من أقواله الكثيرة فى ذلك :

وثقت بعفـــو الله عن كل مســـلم
فلست عن الصهباء ما عشـــت مقصرا
ومنها : غاد المدام وان كانت محـــرمة
فللـــكبائر عنـــد الله غفـــران
ومنها : تكثر ما استطعت من الخطايا
فانك بالـــغ ربا غفـــــورا
نعض ندامة كفيـــك ممـــا	تركت مخافة النار السرورا
ومنها : خوفتمانى الله ربكما	وكخيفتيـــه رجـــاؤه عندى
ومنها : ياكبير الذنب عفو الله	ـه من ذنبـــك أكبـــر

ومنها :

لم ـــ وعفـــو الله مبـــذ	ول غـــدا عنـــد الصراط
خلـــق الغفـــران الا	لامـــرىء فى النـــاس خاط

ويبدو أن أقوال المرجئة هى أكثر المراجع التى تتبعها من أولها ، فان المرجئة فى زمانه لم يصطنعوا الصمت والعزلة فى معترك الفتن ، وانما كان هذا ديدن الصالحين من الصحابة أيام الشقاق بعد عهد عثمان بن عفان رضى الله عنهم ، وأكثرهم فى ذلك الوقت أخذوا بالحـديث الذى رواه أبو بكر عن النبى عليه السلام وفيه أنه « ستكون فتن ، القاعد فيها خير من الماشى ، والماشى فيها خير من الساعى ، ألا فاذا نزلت أو وقعت فمن كان له ابل فليلحق بابله ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه ، ومن كان له أرض فليلحق بأرضه ... فقال رجل : يارسول الله ! من لم تكن له ابل ولا غنم ولا أرض ؟ قال : يعمد الى سيفه فيدق على حده بحجر ، ثم لينج ان استطاع النجاة

فالى هذا المسلك من مسالك المرجئة الأولين ثاب أبو نواس فى أخريات أيامه حين اضطرمت نيران الفتن بين طلاب الخلافة ، فقال :

خل جنبيك لرام وامض عنه بسلام
مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام
ربما استفتحت بالمز ح مغاليق الحمام
رب لفظ ساق آجا ل نيام وقيام
انما السالم من الج م فاه بلجام
فالبس الناس على الصح ة منهم والسقام
وعليك القصد ان ال قصد أبقى للجمام
شبت يا هذا وما تتر ك أخلاق الغلام
والمنايا آكلات شاربات للانام

وليس من المستبعد أن كلامه الذى حمل على الانكار انما كان شططا فى الدعوة الى الأرجاء ، كقوله فى الخلاف بين القدرية والجبرية :

يا ناظرا فى الدين ما الأمر لا قدر صح ولا جبر
ماصح عندى من جميع الذى يذكر الا الموت والقبر

أو كقوله :

ما جاءنا أحد يخبر أنه فى جنة مذمات أو فى نار

الى آخر الأبيات ، اذ كيفما كان قوله فالمرجع فى « الاستعداد » للعقيدة الى معدنه وطبيعته ، وليس من معدن هذه الطبيعة أن تقدم على ظلام المجهول منكرة ثابتة الجأش على الانكار ، وليس من معدنها كذلك أن تغلب الغواية بمناعة العزم والتوبة بين وهن الطبيعة وقوة الاغراء . وماكان من دأبه أن يخفى هذه النقيصة فيه لأن اخفاءها يسومه الكبت وهو لايقوى عليه ، وقد صدق وصف نفسه اذ قال :

ما أبعد النسك من قلب تقسمه قطربل فقرى ينى فكلواذى

أو كما قال بعناد كعناد الأطفال :

فلا والله لا والله لا والله لا أقصر

ومن قبيله قوله :

غررت بتوبتى ولججت فيها فشقى اليوم ثوبك ، لا أتوب

وهو يردد هذا الاعتراف على طريقته المطردة فى جميع أحواله ، وهى « اتخاذ الفضيلة من الضرورة » كما يقول الغربيون فى أمثــالهم ، فاذا اعترف بنقيصته لاح من اعترافه بها كأنها مفخرة يباهى بها المحرومين منها ، وتلك خديعة الطبع الضعيف

أشعاره فى النسك والتوبة

أما أشعاره فى النسك والتوبة فلم يكن جادا فيها طول حياته الى ماقبل وفاته ، فمنها ما كان يصطنعه خوفا من الأمين حيث يصرح قائلا :

أطع الخليفة واعص ذا عـــزف
وتنح عن طرب وعن قصــــف

أو قائلا :

ولئن وعــدتك تركها عــدة   انى عليك لخــائف خلقى

أو قائلا :

ولهــو لتأنيب الامير تركتــه   وفيه لاه منظر وســماع

وقد يغلو متهكما فى وصف تقواه كما قال يخاطب الفضل ابن الربيع :

أنت يا ابن الربيع ألزمتنى النســ
ـك وعودتنيه والخـــير عــادة
فارعــوى باطلى واقصر حــبلى
وتبــدلت عفـــة وزهـــادة
لو ترانى ذكرتك الحســن البصر
ى فى حسن ســمته او قتـــادة
المســـابيح فى ذراعى والمصــحـ
ـف فى لبتى مــكان القـــلادة
واذا شـــئت أن ترى طرفة تعجـ
ـب منها مليحـــة مســـتفادة

فادع بى لا عــدمت تقــويم مثلى
وتفطن لموضـــع الســـجادة
تر أثرا من الصـــلاة بوجهى
توقن النفس انهـــا من عبـــادة
لو رآها بعض المـــرائين يومـــا
لاشـــتراها يعـــدها للشـــهادة
ولقــد طالما شـــقيت ولـــكن
أدركتنى على يديـــك الســعادة

على أنه كان يعلم أنه « نهى سياسى » لجأ اليه الخليفة دفعـا لســوء السمعة التى لصقت به من مصاحبته وقد يجهر بذلك فيصيح كالنـافر المغضب ..

أأمنعها والله لم يمنـع اسمها   وهذا أمير المؤمنين صديقها

هذا أو يكون النظم فى النسك بابا من أبواب « العرض » وصـدق التمثيل ، ليقال انه قال فى النسك وهو ماجن مالم يحذقه النساك ... وروى محمد بن صالح بن بيهس الكلابى أن أديبا من بغداد أسمعه على سـبيل التنويه بشاعرية أبى نواس أبياتا فى الزهد و « ليس هو من طريقته .. » وهذه هى الأبيات :

أخى ما بال قلبك ليس ينقى   كأنك لا تظن المـوت حقا
الا يا ابن الذين فنوا وبادوا   أما والله ما ذهبـــوا لتبقى
وما للنفس عنـدك من مقام   اذا ما استكملت أجلا ورزقا
وما أحد بزاد منـك أحظى   ولا أحد بذنبك منك أشقى
ولا لك غـير تقوى الله زاد   اذا جعلت الى اللهوات ترقى

وكان أبو العتاهية يقول : سبقنى أبو نواس الى ثلاثة أبيات ووددت لو أنى سبقته اليها بكل ما نظمته . فانه أشعر الناس فيها منها قوله :

يا كبـير الذنب عفـو اللـ   ـه من ذنبـك أكـبر

وقوله :

من لم يكن لله متهمـــا　　　لم يمس محتاجا الى آحد

وقوله :

اذا امتحن الدنيـــا لبيب تكشـــفت

له عن عـــدو فى ثيـــاب صـــديق

قال : وقد نظمت فى الزهد ستة عشر ألف بيت ووددت لو أن أبا نواس له ثلثهما بهذه الأبيات ، والبيت الأخير من قصيدة أولها :

ألا رب وجـــه فى التراب عتيـــق

ويارب حسن فى التراب رقيـــق

ويارب حـــزم فى التراب ونجـــدة

ويارب رأى فى التراب وثيـــق

فقـــل لغريب الدار أنك راحـــل

الى منزل نائى المحـــل ســـحيق

وحدث من شاهد أبا نواس لما حج مع جنان ، وقد أحرم أنه لما جنه الليل جعل يلبى بشعره ويحدو بطرب فى صوته حتى اجتمع به كل من سمعه ، وجعل يقول :

الهنـــا ما أعـــدلك　　　مليـــك كل من مـــلك

لبيـــك قد لبيت لك　　　لبيـــك ان الحمد لك

والملـــك لا شريك لـــك　　　ما خـــاب عبـــد سألك

الى آخر هذه التلبية ، وقد أفسدها بما رواه عن نفســـه فى نظمه اذ يقول :

وعاشـــقان التف خداهما　　　عند التثام الحجر الأســـود

فاشـــتفيا من غير أن يأثمـــا　　　كأنمـــا كانا على موعـــد

لولا دفاع الناس اياهمـــا　　　لما استفاقا آخر المســـند

ظللنـــا كلانا ســـاتر وجهه　　　ممـــا يلى جانبـــه باليـــد

نفعل فى المســـجد مالم يكن　　　يفعله الأبرار فى المســـجد

ونكاد نجزم بأنه كذب على نفسه ليستخرج من هذا الموقف ملحـــة

تخيلها ولا تراها تحدث فى مزدحم الطواف ، وشبيه بذلك ماتحاكى به من شربه فى ليلة العيد كأنما خاف على ماكان يسميه « جاهه » عند المجان ولا جاه له يخاف عليه بين أهل الصلاح

وما لم يكن من شعر التوبة اطاعة لأمر أو ادلالا بقدرة فنية ، فلعله خاطرة من خاطرات الندم تطيف بقلبه ساعة ثم تمحوها داعية من دواعى اللهو فينساها ..

ويسرى هذا على شعره كله فى التوبة والعظة ما خلا تنفا يسيرة من نظمه فى أخريات عمره قد تستشف منها خاطرة الأسف الصادق والحزن الخاشع ولم تأت هذه التوبة الا بعد مطاولة ومراوغة يستبقى بهما بقية الشباب

كان الشباب مطية الجهل ... ومحسن الضحكات والهزل
كان الجمال اذا ارتديت به ... ومشيت أخطر صيت النعل
كان المشفع فى مآربه ... عند الفتاة ومدرك النبل (١)
والباعثى والناس قد رقدوا ... حتى أبيت خليفة البعل
والآمرى حتى اذا عزمت ... نفسى اعان يدى بالفعل
والآن صرت الى مقاربة ... وحططت عن ظهر الصبا رحلى
والراح أهواها وان رزأت ... بلغ المعاش وقللت فضلى

وبعد يأس ماقال معترفا بتأخير التوبة بعد فوات حينها أو أحيانها :

دب فى الفناء سفلا وعلوا ... وأرانى أموت عضوا فعضوا
ذهبت شرتى (٢) وجدة نفسى ... وتذكرت طاعة الله نضوا (٣)
ليس من ساعة مضت بى الا ... نقصتنى بمرها لى جزوا
لهف نفسى على ليال وأيا ... م سلكتهن لعبا ولهوا
قد أسأنا كل الاساءة يا ر ... ب فصفحا عنا الهى وعفوا

ثم جعل يودع دنياه بأمثال هذين البيتين :

يا رب ان عظمت ذنوبى كثرة ... فلقد علمت بأن عفوك أعظم
مالى اليك وسيلة الا الرجا ... وجميل عفوك ثم انى مسلم

---

(١) الثأر

(٢) شرتي : الشرة بالكسر من الشباب نشاطه · (٣) نضوا : النضو : المهزول من الابل وغيرها ·

وأبلغ منها قوله :

أرانى مع الاحيــــاء حيـــا واكثرى
على الدهر ميت قد تخــرمه الدهـــر
فمـــا لم يمت منى بمـــا مات ناهض
فبعضى لبعض دون قبر البلى قـــبر
فيارب قد أحســـنت عـــودا وبـــدأة
الى فلم ينهض باحســـانك الشـــــكر
فمن كان ذا عـــذر لديك وحجـــــة
فعذرى اقرارى بأن ليس لى عـــــذر

توبة أبى نواس

وقد تعقبنا الأطوار الجنسية فى هذه الطبيعة وأثرها فى صباها وكهولتها فاذا مضينا الى نهايتها فقد تكون هذه التوبة المترددة أثرا من آثار الطور الجنسى الأخير وهو سن الحرج climacteric الذى عاجله قبل أوانه لافراطه فى مهلكات النفس والجسد ، وهو القائل :

اذا كنت لا أنفك من طاعة الهـــوى
فان الهـــوى يرمى الفتى ببـــــوار

فأدركه ولما يبلغ الخمسين :

واذا عـــددت ســـــنى كم هى لم أجد
للشـــيب عـــــذرا فى النزول برأسى

ومن آثار هذا الطور الجنسى الأخير أزمات قاسية على الشيوخ الذين لم يتأهبوا له بشاغل من شواغل الحنان أو العمل النافع خاصا كان أو عاما فيدفعهم الى الصغائر ويبدى منهم للناس بدوات يستغربونها منهم بعـد ما ألفوه من رصانتهم واتزانهم ، ويصاحب هذه الأزمات شىء من رد الفعل وتغير المألوف فيرعوى السادر فى الغواية ويسدر فى الغواية من لم يكن من أهلها ، وقد رأينا أثر هذه الأزمات فى لوثة أبى العتاهية وهوسه

---

(١) تخرمه : تخرم الدهر القوم استأصلهم واقتطعهم .

الذى أضحك منه صديقه مخارقا فساءله بحق : مَنْ من النساك والصالحين صنع بنفسه مثل هذا الصنيع ؟.. فزميله النواسى قد أدركته هذه الأزمة وجنحت به الى ذلك الوجوم أو السهوم الذى ترجم عنه بتلك الأبيات ولم تدركه قاسية عنيفة على مثال زميله لأنه لم يستقبلها فجأة بالانتقال الى النقيض فيما بين عشية وضحاها

وان أبا نواس فى استعداده للعقيدة الدينية لخليق أن يكون من نماذج طبيعته كما كان نموذجا لها فى مياسم شتى ، فتلك طبيعة لا تصمد للانكار ولا تقدر على ضبط الهوى ولا تخلو من مساورة الهواجس التى تحوم بها حول الدين وتقارف بها حرماته ، فاذا ترقبت التعلة من حولها فوجدتها بعد لهفة عليها كانت لها تلك التعلة كخشبة الغريق تتشبث بها الى الرمق الأخير ولا ترسلها من يديها

***

وليس حتما لزاما أن تسترسل النفس المنحرفة أو الزائغة فى أهوائها ، فان خصلة التسامى بالأهواء معهودة فى النفوس المبتلاة بالنشوز[١] سواء كانت من ذوات القوة والبأس أو ذوات الوهن والهزال ، ولا استثناء للمنحرفين من خصلة التسامى بالعيوب التى تنشأ فى الطبع عيوبا فيجعلها التسامى نقيبة[٢] من أنبل النقائب وأشرفها ويتيح بها للانسان فرصة يعلو بها على نزواته وصغائره ، وقد كان سقراط الحكيم مصابا بهلواس السمع وسبات اليقظة وكان يحب الفتى السبيادس حب الأستاذية المرشدة ويحار السبيادس ــ لمجونه وخلاعته ــ فى معانى هذا الحب فيستدرج أستاذه ويعرض عليه نفسه ، ويروى لنا أفلاطون فى « مائدته » بلسان السبيادس أن هذا الفتى أولم لسقراط وليمة عامة ثم اجتهد أن يبيت معه على انفراد . قال أفلاطون بلسانه « فلما أطفئت الأنوار وذهب الخدم لم أرد أن أحوم مع سقراط حول الغرض وعولت على الافضاء اليه بما فى نفسى ، فناديته : سقراط ! أنائم أنت ؟ فأجابنى : ما أبعدنى عن النوم ! قلت : أو تعلم بماذا أفكر الساعة ؟! قال : لا ، بماذا تفكر ؟ قلت اننى أشعر أنك الوحيد من

---

(١) النشوز : نشزت المرأة على زوجها استعصت وارتفعت عليه وأبغضته . (٢) نقيبة : سجية وطبيعة . والفعل الكريم .

عشاقى الجديد بى ، ولكنك تخاف أن تفصح عما فى قلبك ، فاعلم اذن أننى لأرى من الحماقة ألا أستجيب لرغباتك .. فأصغى الى ثم أجابنى جوابا على نمطه وبسخريته المعهودة فقال : « انك ولاريب فتى لبق يا عزيزى السبيادس .. ولابد أنك ترى فى جمالا يفوق جمال جسدك وملامحك ، فان كنت ترى ذلك فأنت تحاول الساعة أن تبادلنى سلعة بسلعة أغلى منها كثيرا ، وتخرج رابحا من الصفقة .. » ومضى الفيلسوف يعلم الفتى مالا يعنمه من هداية جمال النفوس حين تواجه جمال الأجسام

وفى الادب العربى أمثلة كثيرة لهذا الانحراف الذى اعتدل به التسامى غاية الاعتدال ، فالشاعر تقى الدين السروجى قد كان ولاريب على انحراف فى التكوين وقال الشهابى محمود انه كان مع دينه وورعه وزهده مغرما بالجمال وكان يكره مكانا فيه امرأة . ولما توفى حلف أبو محبوبه ألا يدفنه الا فى قبر ابنه وقال : كان الشيخ يهواه بالحياة وما أفرق بينهما بالممات ، وهذا لما كان يعلمه من دينه وعفته

وكان الشيخ مدرك الشيبانى صاحب « عمرو النصرانى » على هذا الخلق وهو صاحب القصيدة التى أولها :

من عاشق ناء هواه دان ... ناطق دمع صامت اللسان
موثق قلب مطلق الجثمان ... معذب بالصد والهجران

***

من غير ذنب كسبت يداه ... لكن هوى نمت به عيناه
شوقا الى رؤية من أشقاه ... كأنما عافاه من أبلاه

ومنها يستحلف بالمقدسات المسيحية :

يا عمرو بالحق مع اللاهوت ... والروح روح القدس والناسوت(١)
ذاك الذى فى مهده المنعوت ... عرض بالنطق عن السكوت

***

بحق ما فى محكم الانجيل ... من منزل التحريم والتحليل
وخبر ذى نبأ جليل ... يرويه جيل قد مضى عن جيل

---

(١) الناسوت : طبيعه الانسان .

الى آخر القصيدة التى كان أبناء جيله من المسلمين والمسيحيين يتناشدونها ويتبركون بناظمها ولا تطوف بنفوسهم طائفة من الشك فيه وفى معشوقه ..

***

وقبل هؤلاء ذاع فى البصرة هوى الشيخ محمد بن داود الظاهرى لصاحبه محمد الصيدلانى وكلاهما مثل فى العفة والادب . وكان ابن داود هذا يتحرج فى الدين حتى يحرم القياس ولا يقبل غير النص ، فلما نظم هذين البيتين فى محبوبه :

مالهم أنكروا سوادا بخديه ولا ينكرون ورد الغصون
ان يكن عيب خده بدد الشعر فعيب العيون شعر الجفون

قيل له أنكرت القياس فى الفقه وأثبته فى الشعر فقال : هى غلبة الحب !

***

ومثل هذا التسامى يخلق من النقص فضلا ومن الزيغ اعتدالا ويعلم النفوس من الرياضات ماينفعها فى تصفية الأخلاق وتزكية الضمير ، وليس أحد من ذوى العلل الكمينة أو العارضة بعاجز عنه اذا استجمع له نيته وعقد عليه عزيمته ، ولكن هذه المحاولة أعجزت أبا النواس لأنه وقع من مولده فى بيئة تعالج التسامى على أسلوب آخر ، وهو اتخاذ الفضيلة من الضرورة وطلب الوجاهة من وراء الشهرة المخالفة أو تحدى الرياء بالاجتراء عليه ، وهذا بديل من التسامى فى الواقع يجنح اليه من طبع عليه ولم تسعده البيئة بمن يروض طبعه على أسلوب سواه

خاتمة

وبالكلام على عقيدة أبى نواس تنتهى هذه الرسالة ، وهى كما يرى القارىء من عنوانها ومحور بحثها مقصورة على الدراسة النفسية لا ترمى الى ترجمته أو نقد أدبه وشعره ولا تمس وقائع الترجمة أو شواهد الأدب والشعر الا لما فيها من الابانة عن طبيعته والاعانة على تفسيرها واستطلاع كوامنها ..

ومن الخير أن تقال كلمة الخير فى كل ترجمة
وهى لا تكون خيرا الا أن تكون صدقا

وكلمة الخير التى تقال صدقا فى الشاعر أن الآفة عنده انما هى آفة الضعف والشعور المغلوب وليست آفة الشر والأذى . فلم يعرف عنه أنه سعى الى ايقاع الأذى بأحد أو أنه سر بوقوعه فيه ، وعرف عنه على خلاف ذلك أنه كان يسعى الى المساعدة والمؤاساة ما اقتدر عليهما ، فلما أشفق جماعة الشعراء الخاملين من الوفود على الخصيب بمصر وأبو نواس وافد عليه ، طيب خواطرهم واستعطف الخصيب عليهم ، ولم يطلب جائزته الا بعد الاطمئنان على جوائزهم ، ولما غضب الرشيد على الشاعر ابن مناذر وأمر بلطمه واقصائه وأقسم ليحرمنه جوائز الصلات فى حياته قصد اليه أبو نواس وترك بين يديه بدرة[1] من المال لعله لم يكن يملك غيرها فى تلك الآونة ..

ولئن كان حبه مشوبا بشهواته لقد كان لمحاسن الدنيا حب مطبوع فى وجدانه وذوقه ، وكان له فى تلك المحاسن وصف يكسو الحياة زينة ويصقل ما اخشوشن من شدائدها واكدارها على نفوس الأحياء

وبعد فهل زادت عيوب أبى نواس مقدار الرذيلة فى الدنيا ؟ ان المقدار ليختلف هنا مع المقدرين ، ولكنهم لا يختلفون فيما زاده من ثروة النفس والبيان ..

---

(١) بدرة : البدرة : كيس فيه عشرة آلاف درهم .

فهرس

هذا الكتاب



يلمة لغلاف كتاب « أبو نواس » الحسن بن هانىء

تبدو براعة العقاد في التحليل النفسي عند دراسته لشخصية أبي نواس التي يعتبرها شخصية فريدة نموذجية . وهي في واقعها تختلف اختلافا كبيرا عن شخصية أبي النواس التي أسبغها عليه العامة وأشباه العامة . ويرد تكوين هذه الشخصية الى عدة عوامل منها « نرجسيته » التي فطر عليها ومنها نشأته وبيئته التي عاش فيها . ومنها تكوينه الجسدي الذي يتالق فيه جمال وجهه ، وحسن بدنه ، مع لوازم اخرى مثل اللثغة ، وبحة الصوت ، والضفيرة او الذؤابة المرسلة من رأسه فجعلته في صغره شبيها بالبنات . ومن عناصر هذه الشخصية تربيته البيتية ، فقد كان في كفالة امه التي احاطته بكل وسائل التدليل لانه وحيدها . ولم ينج من مغامز اخصامه الذين كانوا يعيرونه بها . اما والده فكان مجهول النسب ، وكان هذا مغمزا آخر يضاف الى ما نسبوه الى أمه مما ولد فيه عقدة نفسية قادته الى التورط في مستنقع الاباحية المطلقة .

م. ل.

0
2

الثمن ٤٠٠ ق. ل.

قرش جنيه
5, 00